جامعة الأزهر
كلية أصول الدين بالقاهرة
قسم التفسير وعلوم القرآن

التقديم والتأخير في القرآن الكريم

دراسة في الإعجاز البلاغي

إعداد
أ.د/ عبد التواب حسن محمد إبراهيم
الأستاذ المساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن
بكلية أصول الدين بالقاهرة
والأستاذ المساعد بكلية الشريعة وأصول الدين جامعة نجران

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا، ونشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن سار على نهجه بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليما كثيرا. وبعد:

فإن الله تعالى أنزل القرآن على نبيه محمد ﷺ ليكون معجزة له ودليلا على رسالته، وقد تحدى به النبي ﷺ العرب فعجزوا عن الإتيان بمثله، وما زال هذا التحدي قائما إلى قيام الساعة، وقد اشتمل القرآن الكريم على أوجه من الإعجاز، ومن هذه الأوجه الإعجاز البلاغي ويعتبر موضوع التقديم والتأخير لونا من ألون الإعجاز البلاغي، وذلك حيث يرى القارئ بعض مواضع القرآن يتقدم فيها لفظ على آخر في موضع، ويتقدم اللفظ المؤخر في موضع آخر، وما هذا التقديم والتأخير في موضعيه اعتباطا بدون ضوابط أو قيود وإنما اقتضى سياق الآيات هذا التقديم والتأخير في موضعيه، لذا أحببت أن أبحث هذا الموضوع لأبين أسرار هذا المبحث الذي يعتبر من مباحث علوم القرآن، والذي يتوقف فهم القرآن الكريم عليه في بعض مواضعه، والذي يُظهر وجهـًا من وجوه إعجاز القرآن وهو الإعجاز البلاغي وسميته:
(التقديم والتأخير في القرآن الكريم دراسة في الإعجاز البلاغي)

وقد قسمت هذا الموضوع إلى مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة.

أما المقدمة: فتشتمل على اسم الموضوع وأهميته وسبب الكتابة فيه.

وأما التمهيد: فيشتمل على تعريف المعجزة، وشروطها، ومميزات معجزة القرآن الكريم.

وأما المبحث الأول: فيشتمل على وجوه إعجاز القرآن الكريم إجمالاً.

والمبحث الثاني:التقديم والتأخير وجه من أوجه إعجاز القرآن البياني.

والمبحث الثالث:أنواع التقديم والتأخير في القرآن الكريم وأسرارهما.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: التقديم والتأخير عند البلاغيين(دراسة تأصيلية)

المطلب الثاني: التقديم والتأخير عند الكاتبين في علوم القرآن (دراسة نقدية).

المطلب الثالث: المقارنة بين منهجي الزركشي والسيوطي في دراسة التقديم والتأخير.

والخاتمة: وتشتمل على أهم النتائج، والفهارس، والمراجع.

وقد حاولت أن أبين وجها من أوجه إعجاز القرآن الكريم، متمثلا في أسلوبه الذي سار عليه وهو ظاهرة التقديم والتأخير فيه متمثلا ذلك في ذكر بعض الأمثلة من آيات القرآن الكريم، وبيان الحكمة من التقديم والتأخير فيها.

وقد اتبعت في هذا البحث المنهج التالي:

١ـ عزو الآيات القرآنية إلى سورها مع ذكر اسم السورة ورقم الآية.

٢ـ تخريج الأحاديث النبوية من كتب السنة المعتمدة مع الحكم عليها غالبـًا.

٣ـ عزو النقول إلى أصحابها من العلماء مع ذكر المصدر ورقم الجزء والصفحة ما أمكن.

وقد بذلت قدر طاقتي في هذا الموضوع فإن أكن وفقت فمن الله وحده وإن كانت الأخرى فحسبي أنني اجتهدت والله من وراء القصد.

أ. د/ عبد التواب حسن محمد إبراهيم

الأستاذ المساعد بقسم التفسير وعلوم بكلية أصول الدين بالقاهرة

والأستاذ المساعد بكلية الشريعة وأصول الدين جامعة نجران

التمهيد

تعريف المعجزة وشروطها، ومميزات معجزة القرآن الكريم

بادئ ذي بدء ينبغي أن يقدم الباحث بين يدي موضوع التقديم والتأخير مقدمة تلقي الضوء على هذا الموضوع المهم تبين العلاقة بين التقديم والتأخير وإعجاز القرآن الكريم؛ لأن التقديم والتأخير في القرآن يعتبر وجها من وجوه إعجازه وهو الإعجاز البلاغي، فنقول بداية ما تعريف المعجزة ؟ وما شروطها ؟ وما مميزات معجزة القرآن الكريم التي تميزها عن غيرها من معجزات الأنبياء السابقين؟

تعريف المعجزة:

المعجزة في اللغة: من أعجز وعجز وهو ما يقابل القدرة.

قال ابن منظور في لسان العرب: العجز نقيض الحزم، والعجز: الضعف، وعجز عن الأمر إذا قصر عنه.(1)

وقال الراغب الأصفهاني في المفردات:

عجُز الإنسان: مؤخره، وبه شبه مؤخر غيره، قال تعالى ﴿**تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ**﴾(2)، والعجز أصله التأخر عن الشيء، وحصوله عند عجُز الأمر، أي: مؤخره، كما ذكر في الدبر، وصار في التعارف اسما للقصور عن فعل الشيء، وهو ضد القدرة، قال تعالى ﴿..**أَعَجَزْتُ أَنْ**

(1) لسان العرب لجمال الدين محمد بن مكرم بن منظور(٩/ ٥٧، ٥٨) ط دار إحياء التراث العربي ط ثالثة بدون تاريخ.
(2) سورة القمر الآية (٢٠).

أَكُون..﴾[1]، وأعجزت فلانا، وعجزته وعاجزته: جعلته عاجزا، قال ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ..**﴾[2]،﴿**وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ**﴾[3]﴿**وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ..**﴾[4]، وقرئ: معجزين[5]، فمعاجزين قيل: معناه ظانين ومقدرين أنهم يعجزوننا؛ لأنهم حسبوا أن لا بعث ولا نشور فيكون ثواب وعقاب، وهذا في المعنى كقوله ﴿**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا..**﴾[6]، و(معجِّزين): ينسبون إلى العجز من تبع النبيﷺ، وذلك نحو: جهلته وفسقته، أي: نسبته إلى ذلك، وقيل معناه: مثبطين، أي: يثبطون الناس عن النبيﷺ[7]، كقوله ﴿**الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ..**﴾[8]، والعجوز سميت لعجزها في كثير من الأمور، قال تعالى ﴿**إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ**﴾[9]، وقال ﴿**أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ**﴾[10][11].

(١) سورة المائدة من الآية (٣١).

(٢) سورة التوبة من الآية (٢).

(٣) سورة الشورى من الآية (٣١).

(٤) سورة الحج من الآية (٥١).

(٥) وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو بن العلاء(معجّزين) بدون ألف مع تشديد الجيم. الكشف عن وجوه القراءات لمكي بن أبي طالب (٢/ ١٢٣) ط مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ط ١٣٩٤هـ ــ١٩٧٤م تحقيق د/ محي الدين رمضان.

(٦) سورة العنكبوت من الآية (٤).

(٧) الكشف عن وجوه القراءات(٢/ ١٢٣).

(٨) سورة الأعراف من الآية (٤٥).

(٩) سورة الصافات الآية (١٣٥).

(١٠) سورة هود من الآية (٧٢).

(١١) المفردات للراغب الأصفهاني(٣٣٤) ط دار الفكر بيروت لبنان ، بدون تاريخ، تحقيق نديم مرعشلي.

فأصل الكلمة يدور حول العجز وهو الضعف عن فعل الشيء والتأخر عنه وعدم القدرة عليه، كما أنه يعنى القوة

والتحدي للأقوياء وإذا تحدى به الأقوياء فعجزوا يكون عجز غيرهم ممن هم دونهم في القدرة على التحدي من باب أولى، وإلا كان قصرا للتحدي على طائفة الأقوياء، والقرآن جاء يتحدى الجميع.

ولفظ المعجزة ولفظ الإعجاز لم يردا في القرآن الكريم بهذا المعنى الدال على الإعجاز، وأول استخدام لهاتين الكلمتين بعد منتصف القرن الثالث الهجري، أو مطلع القرن الرابع.

وإنما وردت في القرآن ألفاظ مرادفة للفظ المعجزة منها لفظ الآية قال تعالى ﴿**قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ..**﴾(١)

ولفظ البينة وهي الدلالة الواضحة قال تعالى ﴿..**قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ..**﴾(٢)

ولفظ البرهان وهو أوكد الأدلة قال تعالى ﴿**فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ**﴾(٣)، ولفظ السلطان وهو القهر والقوة قال تعالى ﴿ **ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ** ﴾(٤)، ولفظ

(١) سورة الأعراف من الآية (٧٣)

(٢) سورة الأعراف من الآية (٧٣).

(٣) سورة القصص من الآية (٣٢).

(٤) سورة المؤمنون الآية (٤٥).

البصيرة وهي البرهان وأصلها وضوح الشيء، ومنه قوله تعالى ﴿**وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا**﴾(١)

ولذلك يرى بعض أهل العلم أن من الأحسن عدم استخدام لفظ المعجزة، وإنما يفضل استخدام لفظ دلائل النبوة، أوأعلام النبوة ويقولون إن هذه الألفاظ إذا سميت بها آيات الأنبياء كانت أدل على المقصود من لفظ المعجزات، ويستأنسون لذلك بأن لفظ المعجزة لم يرد في الكتاب والسنة(٢).

ولكن ليس معنى ذلك عدم جواز استخدام لفظ المعجزة، ولعل استخدام العلماء للفظ المعجزة بدلاً من لفظ الآية والألفاظ الأخرى لإزالة الدلالة المشتركة في الآية من القرآن الكريم كما في قوله تعالى ﴿**مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا**..﴾(٣)، وبين الآية بمعنى العلامة البارزة الدالة على وجود الخالق سبحانه وتعالى ووحدانيته كما في قوله تعالى ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾(٤)، وبين الآية بمعنى البناء العالي كما في قوله تعالى ﴿**أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ**﴾(٥)، وكذلك الخروج من الدلالات المشتركة في الكلمات

(١) سورة الإسراء من الآية (٥٩).

(٢)الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية (٥/ ٤١٢) نشر دار العاصمة الرياض ط أولى ١٤١٤هـ تحقيق د/ على حسن نصر، د/ عبد العزيز إبراهيم العسكر، د/ حمدان محمد.

(٣) سورة البقرة من الآية (١٠٦)

(٤) سورة آل عمران الآية (١٩٠)

(٥) سورة الشعراء الآية (١٢٨).

الأخرى[1].

والمعجزة في الاصطلاح: الأمر الخارق للعادة المقرون بالتحدي السالم من المعارضة يجريه الله على يد النبي تصديقا له في دعوى النبوة[2].

وعندما نقف مع هذا التعريف للمعجزة نجد أنه اشتمل على شروط المعجزة فيشترط في المعجزة شروط:

أولا: أن تكون أمراً خارقاً للعادة، ومعنى كونه خارقا للعادة أنه غير خاضع للمقاييس البشرية والسنن الكونية والأسباب المادية، ولذلك لا يمكن تفسيرها بالأسباب المادية ولا قياسها بها.

ثانيا: أن تكون المعجزة أثراً من آثار قدرة الله سبحانه وتعالى فهي هبة من الله لا يستطيع أحد أن يعين زمانها ونوعها قال تعالى ﴿..**وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ**﴾[3].

ثالثا: أن تكون سالمة من المعارضة أي لا يقدر الناس المعارضون للنبي الذي أتي بها على معارضتها وإزالتها ونقضها وإبطالها ولو استخدموا في ذلك كل الأسباب المادية التي يقدرون عليها.

رابعا: أن تقع على وفق قول من يدعيها فإن قال:آيةُ صدقي أن تمطر

(١) مباحث في إعجاز القرآن د/ مصطفى مسلم (١٨) ط دار القلم ط ثالثة ١٤٢٦هـ ـــ ٢٠٠٥.

(٢) ذكره السيوطي قريبا من هذا التعريف الإتقان في علوم القرآن(٢/ ٣١١) ط مؤسسة الكتب الثقافية ط ثانية ، بدون تاريخ.

(٣) سورة غافر من الآية (٧٨).

السماء فانفجرت الأرض بالمطر لا يعد ذلك دليلا على صدقه، بل هذا ما يسميه العلماء بالإهانة كأن يمسح على مريض ليشفي فيموت.

خامسا: أن يستشهد بها مدعي الرسالة على الله عزوجل أي يجعلها دليلا على صدق رسالته، بأن يقول مثلا: دليل على صدق نبوتي كذا وهو ما أتى به من المعجزة.

سادسا:ـ تأخر الأمر المعجز عن دعوى الرسالة لأنها بمثابة الشاهد ولا يقوم الشاهد إلا بعد قيام الدعوى، أما إذا تقدم على دعوى الرسالة فيكون من قبيل الإرهاص.

سابعا: التحدي بها: وهو أن يقع بها التحدي لمن أرسل إليهم لأن المقصود من المعجزة هو إفحام الجاحدين لها وإقامة الحجة عليهم فإن عدم التحدي لا يبرزها كدليل وبرهان.(١)

وقد خالف البعض في الشرط الأخير وهو التحدي بها، بحجة أنه ليس كل المعجزات وقع التحدي بها فبعض المعجزات خالٍ من التحدي وهي المعجزات التي تقع بين أتباع النبي المؤمنين به المصدقين له فلماذا يتحداهم وهم مؤمنون؟

ومنها العيون الاثنا عشر التي فجرها الله لبني إسرائيل من الحجر، والمائدة التي أنزلها الله لعيسى عليه السلام والحواريين، والجذع الذي حنَ لرسول الله محمد ﷺ، والطعام الذي تكاثر أمامه، والحصى الذي سبّح بين يديه،

(١) ينظر الجامع لأحكام القرآن الكريم للقرطبي(١/ ٧١، ٧٢) بتصرف ط دار الفكر بيروت لبنان ١٤٢٢هـ ـــ٢٠٠٢م.

والماء الذي نبع بين أصابعه،..إلى آخر هذه المعجزات لم يقع بها تحدي وإنما وقعت بين المؤمنين.

وقد فرق بعض العلماء بين الخارقة التي يتحدي بها الرسولُ القوم ويجعلها آية صدقه وبرهان صحة رسالته، وبين الخارقة التي لا تقترن بالتحدي وتقع بين المؤمنين برسالة الرسول، فأطلقوا على النوع الأول اسم المعجزات، وأطلقوا على النوع الثاني اسم دلائل النبوة.(١)

معجزة نبينا محمد ﷺ ومعجزات الأنبياء السابقين:

اقتضت حكمة الله تعالى أن يرسل الرسل إلى أقوامهم ليدعوهم إليه ويدلوهم عليه وتضافرت دعوة الرسل جميعا على الدعوة إلى عبادة الله وحده وعدم عبادة غيره قال تعالى ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ**﴾(٢)

ولكن كانت عادة الأقوام مقابلة هذه الدعوة بالاستهزاء واتهام رسلهم بالاتهامات الباطلة منها اتهامهم بالسحر والجنون وكأن كلمتهم قد تضافرت على هذا الاتهام قال تعالى ﴿**كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ. أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ**﴾(٣)

فشاءت إرادة الله تعالى أن يؤيد هؤلاء الأنبياء والمرسلين بالآيات الدالة على صدقهم والتي تكون إعجازا لقومهم عن معارضتهم، والتي هي بمثابة

(١) مباحث في إعجاز القرآن أ. د/ مصطفى مسلم(٢١).
(٢) سورة الأنبياء الآية (٢٥)
(٣) سورة الذاريات الآيتان(٥٢، ٥٣).

الدليل على صدقهم فكأن الله يقول: صدق عبدي في كل ما يبلغ عنى ودليل صدقه هذه المعجزة التي أجريتها على يديه، والآية التي أرسلته لكم بها.

وقد شاءت حكمته تعالى أن تكون معجزات الأنبياء السابقين قبل نبينا محمدﷺ معجزات مادية، وأن تكون من جنس ما نبغ فيه قومهم حتى يكون ألزم للحجة، وأبعد عن الشبهة وأدحض لهم بأن لا يقولوا لو جاءنا بما نعلمه لعارضناه فقطع حجتهم وأبطل ادعاءاتهم.

فمعجزة إبراهيم عليه السلام هي إنجاؤه من النار وعدم حرقها له بإذن الله بل تحولت إلى برد وسلام، ولقد كان قومه معجبين بالأسباب والقوى المادية الطبيعية، وكانوا يجعلون لها القدرة الذاتية في الأفعال والأحداث، فالنار تحرق بذاتها، والماء يغرق بذاته لا محالة وهكذا.. فأمر الله النار بعدم الإحراق حتى يبطل اعتقادهم في القدرة الذاتية للأسباب المادية ويتوجهوا إلى المسبب الفاعل الحقيقي وهو الله سبحانه وتعالى.

وكذلك موسيعليه السلام بعث إلى قوم يتقنون السحر ويؤمنون به ويمارسونه، فكانت معجزته العصا واليد وهي وإن كانت مشابهة لسحرهم إلا أنها في الحقيقة مخالفة له، بدليل أن أول من سجد هم السحرة لعلمهم أنه لو كان سحراً لعارضوه على أقل تقدير إن لم تكن لهم الغلبة قال تعالى ﴿**وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ. قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ**﴾(١)، ولم يهمهم تهديدات فرعون بالقتل أو الصلب؛ لأنهم عرفوا أن

(١) سورة الأعراف الآيات(١٢٠، ١٢١، ١٢٢).

الفاعل لهذا لا يمكن أن يكون ساحرا، وإنما هو أمر خارج عن طوقهم وهو المعجزة.

كذلك عيسى عليه السلام عاش في زمن تقدم فيه العلم والطب، وافتتن به الناس ومارسوه لذلك جاءت معجزاته من حيث الظاهر مشابهة للطب والعلاج، لكنها فاقت كل أنواع الطب بإحياء الموتى بإذن الله الذي لا يقدر عليه أحد سواه قال تعالى ﴿**وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾(١)

وجاءت معجزة نبينا محمد ﷺ على هذه السنة الإلهية، فكانت من جنس ما نبغ فيه القوم، فبعث الله النبي محمدًا ﷺ في العرب أمة البيان والفصاحة والبلاغة، ولذلك كانت معجزته الأولى والأساس هي القرآن الكريم وهي معجزة بيانية بلاغية، بل فاقت فصاحةُ القرآن فصاحةَ الفصحاء وبلاغة البلغاء.

ولكن الفرق بين معجزات هؤلاء الأنبياء، وبين معجزة نبينا ﷺ أن معجزات الأنبياء جميعا كانت حسية مادية يشاهدها أقوامهم بعيونهم ويتفاعلون معها بحواسهم، أما معجزة القرآن الكريم فلم تكن مادية محسوسة بل كانت معنوية عقلية تدرك بالذوق لا بالحواس، بل إن معجزة

(١) سورة آل عمران الآية(٤٩).

القرآن هي التي حفظت معجزات الأنبياء السابقين فلو لم يخبرنا القرآن بمعجزاتهم ما عرفنا عنها شيئا؛ لأنها موقوتة بمن وقعت فيهم وصدقُها متوقف على إخبار القرآن بها لأنه دليل صدق على كل ما جاء فيه.

كذلك من مميزات معجزة القرآن أنها عين رسالة النبيﷺ، فالقرآن هو أصل رسالة النبيﷺ وهو معجزته التي تحدى بها العرب وغيرهم، بخلاف معجزات الأنبياء السابقين فإنها كانت خارجة عن كتبهم السماوية النازلة إليهم من عند الله تعالى فلم تكن جزءاً منها، فكتاب موسى‍عليه السلام هو التوراة، ومعجزته العصا واليد، وكتاب عيسى‍عليه السلام الإنجيل، ومعجزته هي إبراء الأكمه والأبرص بإذن الله.

ولقد جاءت معجزة القرآن معجزة عقلية لأسرار منها:

- موافقة طبيعة الرسالة الإسلامية فقد جاءت معجزة القرآن عقلية لموافقة طبيعة الرسالة العالمية فالرسول أرسل للعالمين فلابد من تأييده بمعجزة تصلح لكل زمان ومكان بخلاف معجزات الأنبياء السابقين فقد كان كل نبي يرسل إلى قومه خاصة ولذلك جاءت معجزاتهم حسية موافقة لزمانهم ولذلك قال النبي ﷺ " ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة".(١)

(١) أخرجه البخاري ك: فضائل القرآن، باب: كيف نزل الوحي وأول ما نزل ح ٤٦٩٦من حديث أبي هريرة. صحيح البخاري(٤/ ١٩٠٥) دار ابن كثير، اليمامة ــ بيروت ط ثالثة ١٤٠٧ه – ١٩٨٧م تحقيق: د. مصطفى ديب البغا أستاذ الحديث وعلومه في كلية الشريعة ــ جامعة دمشق.

قال السيوطي في الإتقان: وأكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسية لبلادتهم وقلة بصيرتهم، وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية لفرط ذكائهم وكمال أفهامهم ؛ ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة خصت بالمعجزة العقلية الباقية ليراها ذوو البصائر[1].

ولذلك عندما طلب المشركون من الرسول ﷺ أن يأتيهم بمعجزات مادية كما جاء الأنبياء السابقون وكانت طلباتهم تعجيزية، ردَ الله عليهم بأنه هو الذي يملك الآيات ويحدد نوعها قال تعالى ﴿**وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ**﴾[2]

وقد سجل القرآن طلباتهم التعجيزية لرسول الله ﷺ منها قوله تعالى ﴿**وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا.أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا**﴾[3]، ومنها قوله تعالى ﴿**وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا. أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا. أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ**

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي(٢/ ٣١٤)

(٢) سورة العنكبوت الآية (٥٠).

(٣) سورة الفرقان الآيتان(٧، ٨).

كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾(1)

وقد علم الله أنهم لن يؤمنوا حتى ولو أتى لهم بهذه الأدلة المحسوسة، وأظهر مكنونات صدورهم حيث قال مخاطبا نبيه ﷺ ﴿**قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ**﴾(2)، وكون القرآن هو المعجزة الأساسية للرسول ﷺ لا ينفي وجود معجزات مادية له إلا أن القرآن هو الأصل قال تعالى ﴿**وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾(3)

فمن معجزاته ﷺ المادية انشقاق القمر(4)، ونبع الماء(5)، وتكثير الماء(6)، وغيرها.

---

(1) سورة الإسراء الآيات(٩٠، ٩٣)

(2) سورة الأنعام الآية (٣٣).

(3) سورة العنكبوت الآيتان (٥٠، ٥١).

(4) أخرج البخاري بسنده من حديث أنس بن مالك ﷺ : أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر" ك: المناقب، باب: سؤال المشركين أن يريهم النبي آية فأراهم انشقاق القمر ح٣٤٣٨ صحيح البخاري (٣/ ١٣٣١) وقد دلّ على هذه المعجزة قوله تعالى﴿ **اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ**﴾[القمر(١)] .

(5) أخرج البخاري بسنده من حديث أنس بن مالك ﷺ قال: أُتي النبيُّ ﷺ بإناء وهو بالزوراء فوضع يده في الإناء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه فتوضأ القوم ، قال قتادة قلت لأنس كم كنتم ؟ قال ثلاثمائة أو زهاء ثلاثمائة " ك: المناقب، باب:علامات النبوة في الإسلام ح٣٣٧٩ صحيح البخاري(٣/ ١٣٠٩)، والزوراء: اسم موضع في سوق المدينة تلك الأيام، ومعنى زهاء: مقدار.

(6)أخرج البخاري من حديث أنس بن مالك ﷺ أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة =

وقد ذكر بعض العلماء الفرق بين المعجزة العقلية والمعجزات الحسيةأ فقال:

١ـ المعجزات العقلية تقنع العقل وتدفعه إلى التفكير والوصول إلى الحقائق بتعقل وروية، ولعلنا هنا نفهم السر في اهتمام القرآن بالتعقل والتفكر والتدبر وكل المشتقات المشابهة التي تكررت عشرات المرات في القرآن الكريم مقرونة بالاحترام والتقدير، أما المعجزات الحسية فهي تفحم العقل وغالبا ما تكفه عن الرؤية وتضطره بالإفحام القاهر إلى التسليم، ذلك أن المعجزات الحسية تعتمد على الشعور والوجدان فهي لإقناع من لم يقتنع بتفكيره.

٢ـ المعجزات العقلية تتعدد مناهجها وتختلف طرقها في الإقناع وفي الدلالة، فقد تكون أدلتها بيانية، أو غيبية، أو علمية، أما الأدلة الحسية فليس لها من ذلك نصيب.

٣ـ المعجزات الحسية خاصة لا تقيم الحجة إلا على من شاهدها أو تواترت إليه، أما المعجزات العقلية فهي عامة وملزمة للإنسان، لأن العقل هو أخص خصائص الإنسان بصرف النظر عن مكانه أو زمانه أو جنسه.(١)

= العصر، فالتمس الوضوء فلم يجدوه فأُتي رسول الله ﷺ بوَضوء فوضع رسول الله ﷺ يده في ذلك الإناء، فأمر الناس أن يتوضؤوا منه، فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه، فتوضأ الناس حتى توضؤوا من عند آخرهم" ك:المناقب، باب:علامات النبوة في الإسلام ح ٣٣٨٠ صحيح البخاري(٣/ ١٣١٠).

(١) المعجزة والإعجاز في القرآن الكريم د/ سعد الدين السيد صالح(٢٧، ٢٨) بتصرف ط دار المعارف ط ثانية ١٩٩٣م.

المبحث الأول

وجوه إعجاز القرآن الكريم إجمالاً

تعريف الإعجاز: إعجاز القرآن مركب إضافي من كلمتين هما كلمة إعجاز، وكلمة القرآن، والإعجاز مصدر للفعل عجز وهو من الضعف، يقال: عجز عن الشيء يعني لم يقدر عليه، وأعجزه الشيء إذا عجز عنه.

قال الفيروزآبادي: الإِعجاز إِفعال من العَجْز الذي هو زوال القدرة عن الإِتيان بالشيء من عمل، أَو رأْى، أَو تدبير.(١)

وعند إضافة لفظ الإعجاز إلى القرآن يكون معناه: إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به، وهو أن يأتوا بمثله أو بشيء من مثله.

قال الشيخ الزرقاني: إعجاز القرآن مركب إضافي، معناه بحسب أصل اللغة: إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به، فهو من إضافة المصدر لفاعله، والمفعول وما تعلق بالفعل محذوف للعلم به والتقدير: إعجاز القرآن خلقَ الله عن الإتيان بما تحداهم به، ولكن التعجيز المذكور ليس مقصودا لذاته، بل المقصود لازمه وهو إظهار أن هذا الكتاب حق، وأن الرسول الذي جاء به رسول صدق.(٢)

وجوه إعجاز القرآن الكريم:

أما بالنسبة لوجوه إعجاز القرآن الكريم فقد تعددت أقوال العلماء في

---

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادي(١/ ٤٥)

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني(٢/ ٢٥٩) نشر دار الكتاب العربي ط أولى١٤١٥هـ ــ١٩٩٥م.

وجوه إعجازه فذكروا وجوها كثيرة، وكأن كل واحد منهم نظر إلى القرآن من زاويته الخاصة، فأدرك ما أدرك من مواطن الإعجاز، وذلك أن كل ما في القرآن معجز، ولقد سئل بندار الفارسي عن موطن الإعجاز من القرآن الكريم، فأجاب بأن السؤال خطأ، وهو شبيه بقول القائل: ما هو موضع الإنسان من الإنسان ؟ فليس للإنسان موضع من الإنسان بل متى أشرت إلى جملته فقد حققته، وكذلك القرآن لا يسأل عن موضع الإعجاز فيه لأن كل شيء فيه معجز.(١)

فمنهم من أوصلها إلى عشرة وجوه:

قال القرطبي في مقدمة تفسيره: ووجوه إعجاز القرآن الكريم عشرة:

منها:النظم البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب وفي غيرها؛ لأن نظمه ليس من نظم الشعر في شيء.

ومنها: الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب.

ومنها: الجزالة التي لا تصح من مخلوق بحال.

ومنها: التصرف في لسان العرب على وجه لا يستقل به عربي حتى يقع منهم الاتفاق من جميعهم على إصابته في وضع كل كلمة وحرف موضعه.

ومنها: الإخبار عن الأمور التي تقدمت في أول الدنيا إلى وقت نزوله من أميٍ ما كان يتلو من قبله من كتاب ولا يخطه بيمينه، فأخبر بما كان من قصص الأنبياء مع أممها، والقرون الخالية في دهرها، وذكر ما سأله أهل

---

(١) المعجزة والإعجاز في القرآن الكريم د/ سعد الدين السيد صالح (٨٣).

الكتاب عنه وتحدوه به من قصة أهل الكهف، وشأن موسى والخضر عليهما السلام، وحال ذي القرنين فجاءهم ــ وهو أمي من أمة أمية ليس لها بذلك علم - بما عرفوا من الكتب السابقة السالفة صحته فتحققوا صدقه.

ومنها: الوفاء بالوعد المدرك بالحس في العيان في كل ما وعد الله سبحانه.

ومنها: الإخبار عن المغيبات في المستقبل التي لا يطلع عليها إلا بالوحي.

ومنها: ما تضمنه القرآن من العلم الذي هو قوام جميع الأنام في الحلال والحرام وفي سائر الأحكام.

ومنها: الحكم البالغة التي لم تجر العادة بأن تصدر في كثرتها وشرفها من آدمي.

ومنها: التناسب في جميع ما تضمنه ظاهرا وباطنا من غير اختلاف قال الله تعالى ﴿**وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**﴾(١)

قلت: فهذه عشرة أوجه ذكرها علماؤنا رحمة الله عليهم، ووجه حادي عشر قاله النظام وبعض القدرية: أن وجه الإعجاز هو المنع من معارضته والصَرفة عند التحدي بمثله، وأن المنع والصرفة هو المعجزة دون ذوات القرآن؛ وذلك أن الله تعالى صرف هممهم عن معارضته مع تحديهم بأن يأتوا بسورة من مثله، وهذا فاسد؛ لأن إجماع الأمة قبل حدوث المخالف أن

(١) سورة النساء من الآية (٨٢)

القرآن هو المعجز فلو قلنا: إن المنع والصرفة هو المعجز لخرج القرآن عن أن يكون معجزا، وذلك خلاف الإجماع، وإذا كان كذلك علم أن نفس القرآن هو المعجز لأن فصاحته وبلاغته أمر خارق للعادة إذ لم يوجد قط كلام على هذا الوجه، فلما لم يكن ذلك الكلام مألوفا معتادا منهم دل على أن المنع والصرفة لم يكن معجزا.

واختلف من قال بهذه الصرفة على قولين:

أحدهما: أنهم صرفوا عن القدرة عليه ولو تعرضوا له لعجزوا عنه.

والثاني: أنهم صرفوا عن التعرض له مع كونه في مقدروهم ولو تعرضوا له لجاز أن يقدروا عليه.

قال ابن عطية: وجه التحدي في القرآن إنما هو بنظمه وصحة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه، ووجه إعجازه:أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علما وأحاط بالكلام كله علما فعلم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى وتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول(١).

ومعلوم ضرورة النظر يبطل قول من قال: إن العرب كان في قدرتها أن تأتي بمثل القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة فلما جاء محمد ﷺ صرفوا عن ذلك وعجزوا عنه، والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة أحد من المخلوقين، ويظهر لك قصور البشر في أن الفصيح منهم يضع

(١)المحرر الوجيز لابن عطية(١/ ٥٢) ط دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ط ثانية ١٤٢٨هـ ــ٢٠٠٧.

خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده ثم لا يزال ينقحها حولا كاملا، ثم تعطى لآخر بعده فيأخذها بقريحة جامة، فيبدل فيها وينقح ثم لا تزال بعد ذلك فيها مواضع للنظر والبدل، وكتاب الله تعالى لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب أن يوجد أحسن منها لم يوجد.(١)

فنجد القرطبي رحمه الله تعالى يذكر عشرة أوجه من أوجه إعجاز القرآن الكريم عند علماء أهل السنة، ثم يذكر رأي القائلين بالصرفة وأن من وجوه إعجازه الصرفة ويبين معناها عند القائلين بها، ويبطل القول القاضي بأن الإعجاز كان بالصرف لعدة أمور:

١ـ أن بواعث المعارضة كانت قائمة لديهم وموفورة لهم، فلقد تحداهم القرآن أكثر من مرة على الإتيان بمثله أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله، كما أنه سفه عقولهم، ونعى عليهم الجمود والشرك، فكيف لا يحركهم ذلك إلى المعارضة.

٢ـ أن إعجاز القرآن ذاتي وليس بصرف الله للمشركين عن الإتيان بمثله بصرف دواعيهم عن المعارضة كما يرى البعض، أو بسلب علومهم كما يرى آخرون؛ لأن القرآن جاء متحديا الإنس والجن إلى يوم القيامة قال تعالى ﴿**قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنّ**...الآية﴾(٢) فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولو سلبوا القدرة لم يبق لهم فائدة لاجتماعهم لمنزلته منزلة اجتماع الموتى وليس عجز الموتى مما يحتفل بذكره، ومن يرى أن الإعجاز في

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي(١/ ٧٣، ٧٤، ٧٥).
(٢) سورة الإسراء من الآية (٨٨).

الصرف الآن فليأت بمثل القرآن.

٣ـ أنه لو كان العرب الذين نزل القرآن فيهم مصروفين فهل ظل الصرف قائما إلى يومنا هذا ؟ ومعروف أن التحدي بالقرآن باق إلى يوم القيامة ومن ينكر ذلك الرد فليأت بمثل القرآن، وغير ذلك من وجوه البطلان[١].

وأوصل السيوطي وجوه إعجاز القرآن في كتابه معترك الأقران في إعجاز القرآن إلى خمسة وثلاثين وجها.[٢]

فهذا الأقوال مع كثرتها إلا أنها عند التحقيق تجد أنها متداخلة بحيث يستطيع الباحث أن يقول إن وجوه إعجاز القرآن الكريم تتمثل في أربعة وجوه:

١ــ الإعجاز البياني أو البلاغي.

٢ــ الإعجاز الغيبي.

٣ــ الإعجاز التشريعي.

٤ــ الإعجاز العلمي.

وقد تكلم العلماء عن هذه الوجوه وأفاضوا القول فيها، وسيكون حديثنا هنا عن التقديم والتأخير في القرآن الكريم كلونٍ من ألوان الإعجاز البياني.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) ينظر معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي(٣٩ــ٣٢٠) ط دار الفكر بيروت لبنان ط أولى ١٤٢٣هــ٢٠٠٣م.

المبحث الثاني

التقديم والتأخير وجه من وجوه الإعجاز البياني

من أوجه إعجاز القرآن كما سبق الإعجاز البياني، والبيان القرآني كلمة عامة تشمل فصاحة القرآن وبلاغته ونظمه، وهو بهذا المعنى أعم من علم البيان الذي هو فرع من فروع البلاغة بل إنه أعم من مصطلح البلاغة، فهو أعم من مصطلح علم البيان؛ لأن علم البيان قاصر على بعض المباحث البلاغية كالتشبيه، والاستعارة، والمجاز، والكناية، أما الإعجاز البياني فيشمل هذه الأشياء وغيرها من مباحث علم البلاغة.

وهو أعم أيضا من البلاغة لأن القرآن أرفع وأسمى من قواعد البلاغة التي حددها البلاغيون فهو لا يخضع في بعض الأحيان للقواعد البلاغية، فالتكرار مثلا عدّه البلاغيون عيباً في الكلام لكنه في القرآن يكون لفائدة تذهب لو لم يأتِ باللفظ المكرر.

والإعجاز البياني هو أهم أوجه إعجاز القرآن الكريم

يقول الدكتور محمد السيد راضي جبريل:" لعل إعجاز القرآن الكريم بلفظه من أهم وجوه إعجازه إن لم يكن أهمها على الإطلاق؛ لأنه يتعلق بالقرآن ذاته في بنيته اللغوية لا ينفك عنها، ولا يرتبط بحال المنزل عليه، أو حال المخاطبين، أو الفترات الزمانية، ومن ثم كان هذا الوجه أول ما تناوله العلماء بالبحث، وكان قدرا مشتركا بينهم في الحديث عن الإعجاز، كما أفردوه بالتنصيف مثل الباقلاني في(إعجاز القرآن)، والجرجاني في دلائل

الإعجاز، والرافعي في (إعجاز القرآن)، والشيخ محمد عبد الله دراز في (النبأ العظيم)، أو جعلوه أكثر الأوجه بيانا إذا تكلموا فيه مع غيره، ولهذا أيضا كان حقيقا بالبدء به وجعله في صدارة وجوه الإعجاز."[1].

بل إننا لو لم نثبت الوجوه الأخرى لإعجازه لكفي عند العقلاء المنصفين؛ وذلك لأن التحدي الذي تضمنته آيات التحدي إنما هو تحدي بلفظه وبيانه لا بشيء آخر خارج عن ذلك.

كذلك السور الأولى التي نزلت من القرآن الكريم لم تكن تشتمل على الوجوه الأخرى غير الوجه البياني، كذلك من الأدلة على أن الإعجاز البياني يعتبر كافيا أن رسول الله ﷺ طلب منهم الإيمان برسالته بمجرد سماعه القرآن قال تعالى ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ..**﴾[2]، ولا معنى لمثل هذه المطالبة بالإقرار بمجرد السماع إلا أن هذا المقروء عليهم كان هو في نفسه آية فيها أوضح الدليل على أنه ليس كلام البشر، بل كلام خالق البشر.[3] قال العلامة الألوسي: والاقتصار على ذكر السماع لعدم الحاجة إلى شيء آخر في الفهم لكونهم من أهل اللسن والفصاحة.[4]

---

(١)عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم للدكتور/ محمد السيد راضي جبريل(١/ ٣٥) نشر مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.

(٢) سورة التوبة من الآية (٦).

(٣) المعجزة والإعجاز في القرآن الكريم بتصرف (٨٧، ٨٨).

(٤) روح المعاني للألوسي (٦/ ٧٧) ط دار الفكر بيروت لبنان ، بدون تاريخ.

ولما كان للإعجاز البياني هذه الأهمية في بيان إعجاز القرآن الكريم فإن مما اشتمل عليه هذا الإعجاز البياني تركيب الألفاظ ووضعها في أماكنها، ومن ذلك تقديم بعض الألفاظ على بعض، وهذا التقديم لا يمكن أن يكون جزافا وإنما لابد له من حكمة اقتضتها طبيعة النص الكريم، وهو مبحث مهم في بيان فصاحة القرآن وبلاغته، ولذلك أفرده أناس بالتصنيف كما قال السيوطي في الإتقان، وعده الكاتبون في علوم القرآن مبحثا من مباحث علوم القرآن، كذلك كانت عناية المفسرين به واضحة في تفاسيرهم، كذلك وقف البلاغيون أمام هذا الموضوع ودرسوه.

قال الزركشي: هو أحد أساليب البلاغة فإنهم أتوا به دلالة على تمكنهم في الفصاحة وملكتهم في الكلام وانقياده لهم، وله في القلوب أحسن موقع وأعذب مذاق(١).

إن فن التقديم والتأخير فن رفيع يظهر بلاغة القرآن في وضع كل لفظ في موضعه، يدرك ذلك من يقف مع الآيات القرآنية متدبرا، فيرى لماذا قدم هذا اللفظ على هذا اللفظ، وأن هذا التقديم لابد أن يكون لحكمة، من الاهتمام بالمقدم، أو السبق، أو مراعاة السياق، كما سنرى ذلك عند الحديث عن أنواع التقديم والتأخير في القرآن ومعرفة أسراره.

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي(٣/ ٢٧٣) ط دار الفكر بيروت، لبنان١٤٢١هـ ــ ٢٠٠١م.

المبحث الثالث

أنواع التقديم والتأخير في القرآن الكريم وأسرارهما

يحسن بنا قبل أن نذكر أنواع التقديم والتأخير وأسرارهما أن نعرّف بهما من خلال كتب اللغة فيقول صاحب مختار الصحاح: والمُقَدَّم ضدُّ المُؤَخَّر يقال ضَرَبَ مُقَدَّم وَجْهه، ومُقَدِّمة الجَيْش بكسر الدال أوَّلُه. وقُدّام ضدّ وَرَاء.(١)

والتأْخيرُ: ضدُّ التقديم، ومُؤَخَّرُ كل شيء بالتشديد خلاف مُقَدَّمِه، يقال: ضرب مُقَدَّمَ رأْسه ومؤَخَّره.(٢)

وهو في الاصطلاح: هو في علم المعاني ترتيب الألفاظ بما يناسب المعنى في الجملة، وقد يكون غير مناسب نحويا، ولكنه ضروري من الوجهة البلاغية.

وسيكون كلامنا عن التقديم والتأخير من ناحيتين:

الأولى: من وجهة نظر البلاغيين.

والثانية: من وجهة نظر الكاتبين في علوم القرآن.

(١) مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر الرازي(٢٨٦).

(٢) لسان العرب (٤/ ١١) مادة أخر.

المطلب الأول

التقديم والتأخير عند البلاغيين (دراسة تأصيلية)

أما الناحية الأولى وهي الناحية البلاغية فيقول شيخ البلاغيين الإمام عبد القاهر الجرجاني(١) عن التقديم والتأخير: "هو باب كثير الفوائد، جمُّ المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، ولا يزال يفتر[يكشف] لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى ما يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدم فيه شيء وحول اللفظ عن مكان إلى مكان "(٢).

وقد كان الإمام عبد القاهر أول من قرر قواعد التقديم والتأخير، وكان الناس يتحدثون عنه حديثا عاما فيقولون إنما يقدم الشيء للاهتمام به، وبعضهم هوّن أمر التقديم وصغر شأنه ورأى النظر فيه والاشتغال به ضرب من التكلف؛ وذلك لظنهم أنه يكفي في كل شيء قدم إنه مقدم للعناية به، ولأن ذكره أهم، من غير أن يبينوا من أين جاءت تلك العناية، ولم كان ذكره أهم، ويقولون في كل شيء أُخر إنما هو للتشويق.

وعلق بعض الكاتبين على هذا الغرض بأنه مجانب للصواب، فالكلام

(١) عبد القاهرعبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، أبو بكر: واضع أصول البلاغة. كان من أئمة اللغمة. من أهل جرجان (بين طبرسات وخراسان) له شعر رقيق. من كتبه " أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز، الجمل في النحو، والتتمة، والمغني في شرح الإيضاح، ثلاثون جزءا، اختصره في شرح آخر سماه " المقتصد" وغيرها.

بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي(٢/ ١٠٦) ط المكتبة العصرية، لبنان، صيدا.

(٢) دلائل الإعجاز للجرجاني(٩٦) ط دار الكتاب العربي بيروت ط ثالثة ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

البليغ لا يجوز أن يكون التقديم فيه لغرضٍ لفظي فقط، بل يكون مع هذا الغرض اللفظي هدف يتعلق بالمعنى، ولسنا مع ابن الأثير ومن نهج نهجه من أن بعض الكلمات قدمت مراعاة للفاصلة.

يقول الدكتور فضل حسن عباس: ولن نتكلف كما فعل كثير من المتأخرين فكثير من أغراض التقديم والتأخير لا تحتاج إلى بيان لأنها تدرك بالذوق لأول وهلة، وذلك كتعجيل المسرة، أو تعجيل المساءة، والتلذذ، والتبرك فمثل هذه الأغراض ترتكز في الطبع حتى عند أولئك الذين لم يدرسوا قواعد البلاغة، ولم يعرفوا عنها شيئا(١).

أنواع التقديم عند البلاغيين:

للتقديم عند البلاغيين أنواع هي:

الأول ــ تقديم المسند إليه:

المسند إليه: هو المحكوم عليه، وهو ما وضع ليحمل عليه غيره، وهو المبتدأ الذي له خبر، والفاعل ونائبه، وأسماء النواسخ، والأصل في المسند إليه أن يكون متقدما على المسند، وتقديمه معناه عدم مخالفة هذا الأصل وذلك التقديم يكون لأغراض منها:

١ــ كون ذكره أهم:

(أ) إما لأنه الأصل ولا مقتضى للعدول عنه.

(ب) وإما ليتمكن الخبر في ذهن السامع؛ لأن في المبتدأ تشويقا إليه

(١) البلاغة فنونها وأفنانها د/ فضل عباس حسن (٢١٦، ٢١٧) ط دار الفرقان عمان ط أولى ١٤٠٧هـ ــ١٩٨٧م.

كقول الشاعر:

والذي حارت البرية فيه... حيوان مستحدث من جماد(١)

(ج) وإما لتعجيل المسرة أو المساءة لكونه صالحا للتفاؤل، أو التطير نحو: سعدٌ في دارك، والسفّاحُ في دار صديقك.[فقدم المسند إليه وهو لفظ سعد، ولفظ السفاح لتعجيل المسرة في الأول، وتعجيل المساءة في الثاني].

(د) وإما لإيهام أنه لا يزول عن الخاطر، أو أنه يُستلذ فهو إلى الذكر أقرب وإما لنحو ذلك.

وإما لأن كونه متصفا بالخبر يكون هو المطلوب، لا نفس الخبر، كما إذا قيل له: كيف الزاهد؟ فيقول: الزاهد يشرب ويطرب.(٢)

٢ـ التخصيص: ويكون إذا توفر في المسند إليه شرطان:

أحدهما: أن يقع المسند إليه بعد النفي.

والثاني: أن يكون المسند فعلا، نحو: ما أنا قلت هذا، أي: لم أقله مع أنه مقول لغيري.

والشرط الأول مجمع عليه وهو أن يقع المسند إليه بعد نفي، وأما الشرط الثاني وهو أن يكون المسند فعلا فهذا ما ذهب إليه الجرجاني، لكن الزمخشرى وغيره من العلماء يتوسعون في هذا الشرط فهم يعطون هذا

---

(١) البيت لأبي العلاء المعري يرثي بها فقيها حنفيا، والمقصود بالحيوان في البيت هو الإنسان، والحيرة الواقعة فيه من جهة نياط النفس بالجسم.

(٢) التلخيص في علوم البلاغة لجلال الدين محمد بن عبد الرحمن الخطيب القزويني(٧٤) فما بعدها ط دار الفكر العربي ط أولى ١٩٠٤م.

الحكم للفعل وما في معناه كاسم الفاعل، واسم المفعول، فإذا كان المسند إليه مسبوقا بنفي، وكان الخبر فعلا، أو ما في معناه أفاد التخصيص، ومنه قوله تعالى ﴿..**وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ**﴾(١) يبين أن المسند إليه هنا وهو قوله (أنت) قدم للتخصيص؛ إذ ليس غرض قومه أن ينفوا العزة عنه فحسب، بل إن لهم غرضا آخر وهو أن يثبتوها لرهطه وقومه، ولو قالوا: ما عززت علينا لذهبت هذه الفائدة.

ويستدل الزمخشرى على ما ذهب إليه بما جاء في الآية التي تلي هذه الآية، ولو أن تقديم المسند إليه لا يفيد التخصيص ما صحت هذه العبارة حيث قال: وقد دل إيلاء ضميره حرف النفي على أن الكلام واقع في الفاعل لا في الفعل كأنه قيل: وما أنت علينا بعزيز بل رهطك هم الأعزة علينا، ولذلك قال في جوابهم ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ**..﴾(٢) ولو قيل: ما عززت علينا لم يصح هذا الجواب(٣).

وكذلك يقال في كل مسند إليه تقدم عليه النفي، وكان المسند فعلا أو ما في معناه أن التقديم للتخصيص.

أما إذا لم يلِ المسند إليه حرف النفي بأن لا يكون ثمّ نفي أصلا، أو يكون حرف النفي متأخرا عن المسند إليه فقد يفيد التخصيص، وقد يفيد تقوية الحكم وتوكيده، فأنت تقول مثلا: أنا لا أضيع وقتي، فهنا تأخر النفي

---

(١) سورة هود من الآية (٩١).

(٢) سورة هود من الآية (٩٢).

(٣)الكشاف للزمخشري (٢/ ٢٨٩).

عن المسند إليه ففيها تأكيد الحكم ما ليس في قولك: لا أضيع وقتي، بدون تقديم المسند إليه وهو لفظ أنا، وفي الوقت نفسه لا تريد إثبات ذلك لغيرك.

وقد ورد ذلك كثيرا في القرآن، ومنه قوله تعالى ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ**﴾(١) فهو أبلغ من قولك: والذين لا يشركون بربهم.

وقد يفيد هذا النوع التخصيص إذا دلت القرائن على ذلك وفُهم من السياق كقوله تعالى ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ**﴾(٢) فهنا قدم المسند إليه، وهو لفظ الجلالة (الله)، وأُخر النفي وليس المقصود تقوية الحكم وإثباته لله فقط، بل يفيد تخصيص الله بهذا الحكم، وهو أنه وحده الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

٣ـ إفادة التعميم: ويكون إذا اجتمع في الجملة أداة تدل على العموم وأداة تدل على النفي، وتقدمت أداة العموم على أداة النفي، فإذا قدم المسند إليه أفاد التعميم نحو قولك: كل الناجحين لم يأخذوا جوائزهم، وهذا يسمى عموم السلب، وإذا تقدم النفي على العموم سُمي سلب العموم، نحو قولك: لم يأخذ كل الناجحين جوائزهم، فإنك سلبت الحكم عن بعض الأفراد.

٤ـ أن يكون المسند إليه كلمة (مثل)، أو(غير)

كما في قولنا: مثلك لا يبخل ونحوه مما لا يراد بلفظ مثل غير ما أضيف إليه، ولكن أريد أن من كان على الصفة التي هو عليها كان من مقتضى القياس وموجب العرف أن يفعل ما ذكر أو أن لا يفعل.

(١) سورة المؤمنون الآية (٥٩)

(٢) سورة آل عمران الآية (٥)

النوع الثاني من أنواع التقديم عند البلاغيين:

تقديم المسند:

المسند:هو المحكوم به على المسند إليه وهو الخبر، والفعل التام، واسم الفعل، والمبتدأ الوصف المستغني بمرفوعه عن الخبر، وأخبار النواسخ، والمصدر النائب عن الفعل[١]، والأصل في المسند أن يكون متأخراً، ولكن قد يقدم وذلك لأغراض وهي:

١ــ تخصيصه بالمسند إليه:

يقدم المسند على المسند إليه ليفيد تخصيصه به، ومنه قوله تعالى ﴿**لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ..**﴾[٢]،

وقوله تعالى ﴿**فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[٣] فقد أفاد تقديم المسند وهو قوله(لله) على المسند إليه وهو قوله(الأمر) في الآية الأولى، وقوله(الحمد) في الآية الثانية التخصيص وهو أن الأمر لله وحده، والحمد لله وحده، ومثله قوله تعالى ﴿**لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾[٤]، وقولك: قائم هو، لمن يقول: زيد إما قائم أو قاعد فيردده بين القيام والقعود من غير أن يخصصه بأحدهما، ومنه قولهم: تميمي أنا، وعليه

---

(١) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع (١٣١) تأليف:السيد أحمد الهاشمي نشر المكتبة العصرية بيروت ط أولى ١٩٩٩م.

(٢) سورة الروم من الآية (٤)

(٣) سورة الجاثية الآية (٣٦)

(٤) سورة الكافرون الآية (٦).

قوله تعالى ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾(١) بتقديم لفظ(فيها) وهو المسند، على المسند إليه وهو لفظ (غول) أي: بخلاف خمور الدنيا فإنها تغتال العقول، ولهذا لم يقدم الظرف في قوله تعالى ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾(٢) فلم يقدم الظرف في الثاني لئلا يفيد التقديم ثبوت الريب فيما عدا القرآن من كتب الله المنزلة.

٢ــ **التنبيه من أول الأمر أنه خبر لا صفة:** ومنه قوله تعالى ﴿**وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**﴾(٣) فقدم لفظ﴿**ولكم في الأرض**﴾على قوله ﴿**مستقر**﴾ ليفيد أنه خبر؛ إذ لو تأخر لصار صفة؛ لأن الجمل وشبه الجمل بعد النكرات صفات، والخبر والصفة متشابهان فما يصلح أن يكون صفة يصلح أن يكون خبراً، لكن الخبر أقوى في دلالته من الصفة؛ لأن الخبر ركن أصيل في الجملة بخلاف الصفة، ولهذا يقدم المسند للدلالة على أنه خبر لا صفة، فالخبر قد يتقدم على المبتدأ، ولا تتقدم الصفة على الموصوف، فيقدم المسند للدلالة من أول الأمر أنه خبر لا صفة.

٣ــ **أن يكون التقديم للمسند للتفاؤل** كقولك للمريض: في عافية أنت؛ إذ الأصل أن تقول: أنت في عافية.

٤ــ **أن يكون التقديم للمسند للتشويق إلى ذكر المسند إليه** كقول الشاعر:

---

(١) سورة الصافات الآية (٤٧).

(٢) سورة البقرة من الآية (٢).

(٣) سورة البقرة من الآية (٣٦).

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها... شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر(١)

إذ الأصل في تركيب الجملة: شمس الضحى، وأبو إسحاق، والقمر ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها، لكنه قدم المسند وهو قوله: ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها للتشويق إلى المسند إليه، ولا يتحقق هذا التشويق بتقديم المسند إليه فلما قال الشاعر: ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها تشوق السامع إلى معرفتها ما هي.

النوع الثالث ـ من أنواع التقديم عند البلاغين:

تقديم بعض متعلقات الفعل: الأصل في تركيب الجملة الفعلية أن تبتدأ بالفعل ثم الفاعل ثم المفعول، والمراد بمتعلقات الفعل الزمان والمكان الذي يقع فيهما الفعل، والجار والمجرور، والحال والمفعول، وقد تُقدم بعضُ المعمولات على بعض وهذا التقديم له أسباب منها:

١ ـ أن يكون هذا التقديم هو الأصل، ولا مقتضى للعدول عنه، كتقديم الفاعل على المفعول، كأن يكون ذكره أهم، أو لأن في التأخير إخلالا بالمعنى كقوله ﴿**وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ**..﴾(٢) فلو أخر قوله ﴿**مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ**﴾ عن قوله ﴿**يَكْتُمُ إِيمَانَهُ**﴾ لوقع الوهم في فهم الآية؛ إذ لم يفهم أن الرجل من آل فرعون وهذا هو المطلوب في الآية، واعتبر السكاكي التقديم للعناية بالمقدم مطلقا.

ولكن قد يقدم المفعول به على الفعل لرد الخطأ في التعيين كقولك:

(١) التلخيص للخطيب القزويني (١٢٤، ١٢٥).

(٢) سورة غافر من الآية (٢٨).

زيداً عرفتُ لمن اعتقد أنك عرفت إنسانا وأنه غير زيد، وتقول لتأكيده لا غيره، ولذلك لا يقال: ما زيدا ضربت ولا غيره، ولا ما زيدا ضربت ولكن أكرمته، إن قدر المفسر قبل المنصوب.(١)

ومن هذا الباب أيضا تقديم الحال على فعله، وتقديم الظرف والجار والمجرور على فعلهما، وتقديم الخبر على المبتدأ ونحو ذلك. وهذا التقديم في الغالب يفيد الاختصاص. فقولك: ضربت زيدا يفيد ضربك له، ولا يفيد أنك خصصته بالضرب، فإذا قلت: زيداً ضربتُ أفاد ذلك أنك خصصته بالضرب.

ومثل هذا التقديم في القرآن كثير: فمن ذلك قوله تعالى ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾(٢) فقد قدّم المفعول به ﴿**إِيَّاكَ**﴾ على فعل العبادة وعلى فعل الاستعانة، وسبب ذلك أن العبادة والاستعانة مختصتان بالله تعالى فلا يعبد أحد غيره ولا يستعان بغيره.

وهذا نظير قوله تعالى ﴿**بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ**﴾(٣)، وقوله ﴿**وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**﴾(٤) فقدم المفعول به على فعل العبادة في الموضعين؛ وذلك لأن العبادة مختصة بالله تعالى.

ومثل التقديم على فعل الاستعانة قوله تعالى ﴿**وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ**

(١) التلخيص في علوم البلاغة (١٣٢، ١٣٣)
(٢) سورة الفاتحة الآية (٥).
(٣) سورة الزمر الآية(٦٦).
(٤) سورة البقرة من الآية (١٧٢).

الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[1]، فقدم الجار والمجرور للدلالة على الاختصاص؛ وذلك لأن التوكّل لا يكون إلا على الله وحده، والإنابة ليست إلا إليه وحده.

واعتبر الخطيب القزويني أن مثل هذا التقديم قد يفيد وراء التخصيص الاهتمام بالمقدم قال: ولهذا يقدر في: بسم الله مؤخرا(كما تقول عند القراءة بسم الله فكأن التقدير: بسم الله أقرأُ، فقدر العامل مؤخراً ليفيد مع اختصاص القراءة ببسم الله الاهتمام؛ لأن المشركين كانوا يبدؤون بأسماء آلهتهم فقصد المُوحد تخصيص اسم الله بالابتداء للاهتمام والرد عليهم) ولا يرد عليه قوله تعالى ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾[2] حيث قدم العامل على (باسم ربك)؛ لأنه أجيب عنه بجوابين:

أحدهما: أنه قدم لأنه الأهم هنا حيث إنها أول سورة نزلت فكأن الأمر بالقراءة أهم من الأمر باختصاص القراءة باسم الله.

والثاني: أن يحمل ﴿**اقْرَأْ**﴾على معنى افعل القراءة وأوجدها، وأن يكون ﴿**بِاسْمِ رَبِّكَ**﴾ مفعول اقرأ الذي بعده.[3]

وقد يكون التقديم من هذا النوع لغرض آخر كالمدح والثناء، والتعظيم، والتحقير وغير ذلك من الأغراض، إلا أن الأكثر فيه أنه يفيد الاختصاص.

ومن التقديم الذي لا يفيد الاختصاص قوله تعالى ﴿**وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ**

---

(١) سورة إبراهيم من الآية (١٢).

(٢) سورة العلق الآية (١).

(٣) التلخيص في علوم البلاغة بتصرف (١٣٥).

وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ..﴾(١) فهذا ليس من باب التخصيص إذ ليس معناه: أننا ما هدينا إلا نوحاً، وإنما هو من باب المدح والثناء. ونحو قوله ﴿**فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ. وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ**﴾(٢)، إذ ليس المقصود به جواز قهر غير اليتيم ونهر غير السائل، وإنما هو من باب التوجيه، فإن اليتيم ضعيف وكذلك السائل وهما مظنة القهر، فقدمهما للاهتمام بشأنهما والتوجيه إلى عدم استضعافهما.

وكذلك تقديم خبر المبتدأ عليه، كقولك: زيد قائم، وقائم زيد، فقولك: قائم زيد، قد أثبتَ له القيام دون غيره، وقولك: زيد قائم أنت بالخيار في إثبات القيام له ونفيه عنه، بأن تقول: ضارب، أو جالس، أو غير ذلك، وهكذا

---

(١) سورة الأنعام من الآية (٨٤) وقال العلامة الألوسي:﴿**وَنُوحاً**﴾قال شيخ الإسلام: منصوب بمضمر يفسره ﴿**هَدَيْنَا مِن قَبْلُ**﴾، ولعله إنما لم يجعله مفعولاً مقدماً للمذكور لئلا يفصل بين العاطف والمعطوف بشيء، أو يخلو التقديم عن الفائدة السابقة أعني القصر ولا يخلو ذلك عن تأمل. روح المعاني(٥/ ٣٠٦).

فالعلامة الألوسي لا يرى ما يراه العلامة أبو السعود من أنه مفعول به لفعل محذوف يفسره الفعل (هدينا) المذكور بحجة أن التقديم لا يكون له فائدة ، وما يمنع أن يكون التقديم للمدح والثناء أو للاهتمام.

واعتبر الطاهر ابن عاشور: التقديم هنا للاهتمام حيث قال: وانتصب﴿**نوحاً**﴾على أنّه مفعول مقدّم على﴿**هدينا**﴾ للاهتمام. التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور(٤/ ٣٣٨) ط دار سحنون تونس بدون تاريخ.

وسواء قلنا إنه من باب الاهتمام أو من باب المدح والثناء، فالثناء والمدح ما هما إلا من باب الاهتمام بالمذكور لكن ليس التقديم هنا للقصر كما هو المعتاد غالبا في تقديم المفعول به على فعله.

(٢) سورة الضحى الآيتان (٩، ١٠).

يجري الحكم في تقديم الظرف، كقولك: إن إليّ مصير هذا الأمر، وقولك:إن مصير هذا الأمر إلي، فإن تقديم الظرف دل على أن مصير الأمر ليس إلا إليك، بخلاف قولك: إن مصير هذا الأمر إليّ، إذ يحتمل إيقاع الكلام بعد الظرف على غيرك، فيقال: إلى زيد، أو عمرو، أو غيرهما.

وأما تقديم خبر المبتدأ عليه فقد تقدمت صورته، كقولك: زيد قائم، وقائم زيد، ومما ورد منه في القرآن قوله تعالى:﴿**وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ**..﴾(١) فإنه إنما قال ذلك، ولم يقل: وظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم؛ لأن في تقديم الخبر وهو لفظ(مانعتهم)على المبتدأ(حصونهم) دليلا على فرط اعتقادهم في حصانتها، وزيادة وثوقهم بمنعها إياهم، وفي تصويب ضميرهم اسما لأَنَّ، وإسناد الجملة إليه دليل على تقريرهم في أنفسهم أنهم في عزة وامتناع لا يبالي معها بقصد قاصد ولا تعرض متعرض، وليس شيء من ذلك في قولك: وظنوا أن حصونهم مانعتهم من الله.(٢)

وأما تقديم الظرف، فإنه إذا كان الكلام مقصودا به الإثبات فإن تقديمه أولى من تأخيره، وفائدته إسناد الكلام الواقع بعده إلى صاحب الظرف دون

---

(١) سورة الحشر من الآية (٢).

(٢) قال أبو السعود: وتغييرُ النظم بتقديم الخبر وإسنادُ الجملةِ إلى ضميرِهم للدلالةِ على كمالِ وثوقِهم بحصانةِ حصونِهم واعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزةً ومنعةٍ لا يُبَالى معها بأحدٍ يتعرضُ لهم أو يطمعُ في مُعازّتهم. إرشاد العقل السليم(٦/ ٣٠٣) ط دار الفكر ط أولى١٤٢١هـ ــ٢٠٠١م.

غيره، فإذا أريد بالكلام النفي فيحسن فيه تقديم الظرف وتأخيره، وكلا هذين الأمرين له موضع يختص به.

فأما تقديمه في النفي فإنه يقصد به القصر، أما تأخيره فإنه لا يقصد به سوى النفي المجرد.

فأما الأول: - وهو تقديم الظرف في الإثبات - فكقولك في الصورة المقدمة: إن إليّ مصير هذا الأمر، ولو أخرت الظرف فقلت: إن مصير هذا الأمر إليّ، لم يعط من المعنى ما أعطاه الأول، وذلك أن الأول دل على أن مصير الأمر ليس إلا إليك، وهو معنى القصر، وذلك بخلاف الثاني، إذ يحتمل أن توقع الكلام بعد الظرف على غيرك، فيقال: إلى زيد، أو إلى عمرو، أو إلى غيرهما، وعلى نحو منه جاء قوله تعالى ﴿ **إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ.ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ**﴾(١)، وكذلك جاء قوله تعالى ﴿**يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْد**..﴾(٢) فإنه إنما قدم الظرفين ههنا في قوله ﴿**لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْد**﴾ ليدل بتقديمهما على اختصاص الملك والحمد بالله لا بغيره.(٣)

---

(١) سورة الغاشية الآيتان(٢٥، ٢٦)

(٢) سورة التغابن من الآية (١).

(٣) ذكر ابن الأثير أن تقديم الظرف يكون لمراعاة الفاصلة وحسن نظم الكلام، وقد تناقض مع نفسه حين نفى إفادة القصر المستفاد من التقديم للظرف وأثبت أنه لمراعاة الفاصلة لكن راح يفسر ما ذكره من أمثلة تفسيرا قصريا حيث يقول: وقد استعمل تقديم الظرف في القرآن كثيراً كقوله تعالى:﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ. إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴾[القيامة٢٢، ٢٣] أي تنظر إلى ربها دون غيره، فتقديم الظرف ههنا ليس للاختصاص، وإنما هو كالذي أشرت إليه في تقديم المفعول، =

وأما الثاني: وهو تأخير الظرف وتقديمه في النفي فنحو قوله تعالى ﴿الم.ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾(1)، وقوله تعالى ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾(2) فإنه إنما أخر الظرف في الأول لأن القصد في إيلاء حرف النفي الريب نفي الريب عنه، وإثبات أنه حق وصدق، لا باطل وكذب، كما كان المشركون يدعونه، ولو أولاه الظرف لقصد أن كتابا آخر فيه الريب لا فيه، كما قصد في قوله ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ فتأخير الظرف يقتضي النفي أصلا من غير تفضيل، وتقديمه يقتضي تفضيل المنفي عنه، وهو خمر الجنة، على غيرها من خمور الدنيا، أي ليس فيها ما في غيرها من الغول، وهذا مثل قولنا: لا عيب في الدار، وقولنا لا فيها عيب، فالأول نفي للعيب عن الدار فقط، والثاني

= وأنه لم يقدم للاختصاص، وإنما قدم من أجل نظم الكلام، لأن قوله تعالى﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ. إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾أحسن من أن لو قيل:وجوه يومئذ ناضرة ناظرة إلى ربها، والفرق بين النظمين ظاهر، وكذلك قوله تعالى:﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ. إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ [القيامة ٢٩، ٣٠] فإن هذا روعي فيه حسن النظم لا الاختصاص، في تقديم الظرف وفي القرآن مواضع كثيرة من هذا القبيل يقيسها غير العارف بأسرار الفصاحة على مواضع أخرى وردت للاختصاص وليست كذلك، فمنها قوله تعالى﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة ١٢] وقوله تعالى﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾[الشورى٥٣] و﴿لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص٨٨] و﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[هود ٨٨] ، فإن هذه جميعها لم تقدم الظروف فيها للاختصاص وإنما قدمت لمراعاة الحسن في نظم الكلام فاعرف ذلك. المثل السائر(٢/ ٣٩، ٤٠). فتراه يحمل الآيات على مراعاة الفاصلة ثم يفسرها تفسيرا على القصر وأمر القصر فيها واضح جلي.

(١) سورة البقرة من الآية (١، ٢).

(٢) سورة الصافات الآية (٤٧).

تفضيل لها على غيرها: أي ليس فيها ما في غيرها من العيب.

- وأما تقديم الحال فكقولك: جاء راكبا زيد، وهذا بخلاف قولك:جاء زيد راكبا، إذ يحتمل أن يكون ضاحكا أو ماشيا أو غير ذلك.

وأما الاستثناء فجار هذا المجرى، نحو قولك: ما قام إلا زيدا أحد، أو ما قام أحد إلا زيدا، والكلام على ذلك كالكلام على ما سبق.

هذا هو حديث البلاغيين عن التقديم والتأخير فهو عندهم قاصر على تقديم المسند إليه، والمسند، وتقديم بعض المعمولات على بعض، ورأيناهم لا يقتصرون على ذكر شواهد من اللغة فقط، وإنما يذكرون كثيرا من الشواهد القرآنية.

***

المطلب الثاني

التقديم والتأخير عند علماء علوم القرآن (دراسة نقدية)

انصرفت جهود الكاتبين في علوم القرآن في هذا المبحث إلى بيان أسرار التقديم والتأخير، والأوجه البلاغية التي تظهر جمال القرآن وروعة بيانه، وقد تناول هذا المبحث كثير من العلماء مبينين أنواعه وأسباب التقديم في كل نوع ومنهم: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي المتوفى٥٨١ه في كتابه(نتائج الفكر في النحو)[١]، وكذلك ابن القيم في تعقباته للسهيلي في بدائع الفوائد، وفي كتابه (الفوائد المشوق)[٢]

وسيكون حديثنا عن التقديم والتأخير عند علماء علوم القرآن مقتصرا على عالمين جليلين هما العلامة بدر الدين الزركشي ت٧٩٤ه في كتابه(البرهان في علوم القرآن)، والعلامة جلال الدين السيوطي ت٩١١ه في كتابه (الإتقان في علوم القرآن)،لأنهما فصلا القول في هذه القضية، وسأقوم بنقل كلامهما مع التعليق عليه مع نقده فيما يحتاج إلى نقد، مبينا بعد ذلك مقارنة بين منهجيهما.

---

(١) نتائج الفكر في النحو للسهيلي (٢٠٩ــ٢١٥) ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط أولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .

(٢) بدائع الفوائد لابن القيم (١/ ٦٤) فما بعدها نشر مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة ط أولى ١٤١٦ ه - ١٩٩٦م

،الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان (٨٢ - ٨٦) ط مطبعة السعادة بجوار محطة مصر، ط أولى ١٣٢٧ه.

التقديم والتأخير عند الإمام الزركشي

أما الإمام الزركشي فحين تحدث عن التقديم والتأخير في القرآن عقد فصلا ذكر فيه أسباب التقديم والتأخير قائلا إنها كثيرة ثم قام بعدِّها وهي:

أحدها: أن يكون أصله التقديم ولا مقتضى للعدول عنه، كتقديم الفاعل على المفعول، والمبتدأ على الخبر، وصاحب الحال عليها نحو: جاء زيد راكبًا.[1]

والثاني: أن يكون في التأخير إخلال ببيان المعنى كقوله تعالى﴿**وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ..**﴾[2]، فإنه لو أخر قوله﴿**مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ**﴾ فلا يفهم أنه منهم.[3]

الثالث:أن يكون في التأخير إخلال بالتناسب فيقدم لمشاكلة الكلام ولرعاية الفاصلة كقوله﴿**وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُون**﴾[4] بتقديم﴿**إِيَّاهُ**﴾على﴿**تَعْبُدُون**﴾ لمشاكلة رءوس الآي، وكقوله﴿**فَأَوْجَسَ فِي**

(١) هذا الأصل كما سبق أن ذكرنا في الحديث عن تقديم المسند إليه عند البلاغيين فهذا أصل الكلام عند علماء العربية تقديم الفعل على الفاعل، والفاعل على المفعول، والمبتدأ على الخبر فلا يصح مخالفة هذا الأصل إلا لمقتضٍ يقتضي هذه المخالفة كما سيأتي.

(٢) سورة الأعراف من الآية (٢٨).

(٣) سبق الحديث عنه عند الحديث عن تقديم بعض متعلقات الفعل، فإنه لو أخر لفظ ﴿**مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ**﴾ لأوقع في الوهم أنه ليس منهم فقدمه حتى يرفع هذا الوهم.

(٤) سورة فصلت من الآية (٣٧) وقد سبق أن ذكرنا أنه لا ينبغي التعويل على القول بالتقديم لرعاية الفاصلة فقط، وإنما يقال مع مراعاة الفاصلة بالاختصاص حيث تقدم المفعول به على الفعل لإفادة اختصاصه تعالى بالعبادة.

نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى)﴾[1]) فإنه لو أخر﴿**فِي نَفْسِهِ**﴾عن﴿**مُوسَى**﴾ فات تناسب الفواصل؛ لأن قبله﴿**يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى**﴾[2]، وبعده ﴿**إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى**﴾[3].

الرابع: لعظمه والاهتمام به؛ وذلك أن من عادة العرب الفصحاء إذا أخبرت عن مخبر ما، وأناطت به حكما وقد يشركه غيره في ذلك الحكم أو فيما أخبر به عنه، وقد عطفت أحدهما على الآخر بالواو المقتضية عدم الترتيب فإنهم مع ذلك إنما يبدءون بالأهم والأولى، قال تعالى﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ**﴾[4] فبدأ بالصلاة لأنها أهم، وقال سبحانه﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ**﴾[5]، وقال تعالى﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾[6] فقدم العبادة للاهتمام بها.

الخامس: أن يكون الخاطر ملتفتا إليه والهمة معقودة به، وذلك كقوله تعالى﴿**وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ.**﴾[7] بتقديم المجرور على المفعول الأول؛ لأن الإنكار متوجه إلى الجعل لله، لا إلى مطلق الجعل.

(١) سورة طه الآية (٦٧) بهذا قال بعض المفسرين أن تأخير الفاعل عن المفعول لرعاية الفاصلة منهم الألوسي.

(٢) سورة طه من الآية (٦٦).

(٣) سورة طه من الآية (٦٨).

(٤) سورة البقرة الآية (٤٣).

(٥) سورة المائدة من الآية (٩٢)

(٦) سورة الفاتحة الآية (٥).

(٧) سورة الأنعام من الآية(١٠٠).

السادس: أن يكون التقديم لإرادة التبكيت والتعجيب من حال المذكور، كتقديم المفعول الثاني على الأول في قوله تعالى﴿**وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ**﴾[1]، والأصل: الجن شركاء، وقدم لأن المقصود التوبيخ، وتقديم الشركاء أبلغ في حصوله.

السابع: الاختصاص، وذلك بتقديم المفعول، والخبر، والظرف والجار والمجرور، ونحوها على الفعل كقوله تعالى ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**[2]﴾ أي: نخصك بالعبادة فلا نعبد غيرك، والخبر كقوله ﴿**قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي**..﴾[3].

وأما تقديم الظرف ففيه تفصيل: فإن كان في الإثبات دل على الاختصاص كقوله تعالى﴿**إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ.ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ**﴾[4]، وإن كان في النفي فإن تقديمه يفيد تفضيل المنفى عنه كما في قوله تعالى﴿**لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ**﴾[5] أي ليس في خمر الجنة ما في خمرة غيرها من الغول، وأما تأخيره فإنها تفيد النفي فقط كما في قوله﴿**لَا رَيْبَ فِيهِ**﴾[6]، فكذلك إذا قلنا: لا عيب في الدار كان معناه نفي العيب في الدار، وإذا قلنا: لا في الدار عيب كان معناه أنها تفضل على غيرها بعدم العيب.[7]

(١) سورة الأنعام من الآية(١٠٠).

(٢) سورة الفاتحة من الآية(٥).

(٣) سورة مريم من الآية(٤٦).

(٤) سورة الغاشية الآيتان(٢٥، ٢٦).

(٥) سورة الصافات الآية(٤٧).

(٦) سورة البقرة من الآية (٢).

(٧) البرهان في علوم القرآن للزركشي بتصرف (٣/ ٢٣٣ فما بعدها).

ثم يعقد العلامة الزركشي فصلاً ثانيا لأنواع التقديم والتأخير ويبين أنها ثلاثة أنواع:

وهي: إما أن يقدم والمعنى عليه، أو يقدم وهو في المعنى مؤخر أو بالعكس، ويذكر أسرار التقديم في هذه الأنواع.

النوع الأول: ما قدم والمعنى عليه(١):

ومقتضياته كثيرة قد يسر الله منها خمسا وعشرين، ولله در ابن عبدون(٢) في قوله:

سقاك الحيا من مغان فساح... فكم لي بها من معان فصاح

أحدها: السبق:

وهو أقسام منها: السبق بالزمان والإيجاد كقوله تعالى ﴿**إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ**..﴾(٣)

---

(١) أي تقدم اللفظ في العبارة، والمعنى على تقديمه، ولما كان الأصل تقديم اللفظ في العبارة أراد أن يبين ما هو سبب التقديم وكونه الأصل.

(٢) ابن عبدون: عبد المجيد بن عبدون، أبو محمد الفهري؛ روى عن أبي عاصم بن أيوب وأبي مروان بن سراج والأعلم الشنتمري، وتوفي سنة عشرين وخمسمائة، رحمه الله تعالى، وكان أديباً شاعراً كاتباً مترسلاً، عالماً بالخبر والأثر ومعاني الحديث، أخذ الناس عنه، وله مصنف في الانتصار لأبي عبيد علي ابن قتيبة. ومن شعره قصيدته الرائية التي رثى بها ملوك بني الأفطس وذكر فيها من أباده الحدثان، من ملوك كل زمان. فوات الوفيات لابن شاكر(٢/ ٣٨٨)، والبيت من قصيدة ذكرها ابن شاكر في ترجمته.

(٣) سورة آل عمران من الآية (٦٧)، فقدم الذين اتبعوه على النبي محمد ﷺ لسبقهم في الإيجاد، وهذا على أن المراد بالذين اتبعوه من كانوا على شريعته في زمانه،أما لو أريد بالذين اتبعوه مطلقا فيكون عطف النبي عليهم من قبيل عطف الخاص على العام اهتماما به، وكون نبينا ﷺ =

قال ابن عطية: المراد بالذين اتبعوه في زمن الفترة.[1]، وقوله﴿**اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ**..﴾[2] فإن مذهب أهل السنة تفضيل البشر، وإنما قدم الملَك لسبقه في الوجود[3].

= أولاهم به لموافقة شريعته للشريعة الإبراهيمية أكثر من موافقة شرائع سائر المرسلين لها، وكون المؤمنين من هذه الأمة كذلك لتبعيتهم نبيهم فيما جاء به ومنه الموافق قاله الألوسي بتصرف. روح المعاني(٣/ ١٩٧)

(١) المحرر الوجيز لابن عطية (١/ ٤٥١) ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان، ط أولى ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

(٢) سورة الحج من الآية (٧٥).

(٣) هذا القول على إطلاقه لا يصح بأن البشر أفضل من الملائكة، وإنما الصواب أن يقال: الصالحون من البشر أفضل من الملائكة، ولعل ذلك مقصود الزركشي لأنه يتكلم عن الرسل من كلٍ من الملائكة ومن البشر، وإلا فالمذهب الراجح هو مذهب أهل السنة في تفضيل صالح البشرً على الملائكة، بدليل أمر الملائكة بالسجود لآدمﷺ، وكان السجود له سجود تحية وإجلال، وخالفت المعتزلة في ذلك وقالت الملائكة أفضل من البشر.

وجمع شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بين القولين بأن الملائكة أفضل من البشر باعتبار البداية، فالملائكة يسبحون ويحمدون ولا يعصون الله ما أمرهم، فمنهم الذاكر، ومنهم المسبح، ومنهم الراكع، ومنهم الساجد، ومنهم الموكل بأمر لا يمكن أن يعصي الله جل وعلا فيه بحال من الأحوال، فهذا حقاً أكمل المراتب.

أما في الآخرة: فالبشر أفضل من الملائكة؛ إذ إنهم عند دخولهم الجنة يكونون أرقى بكثير من الملائكة، ويزدادون قربة من الله، وينظرون إلى وجهه سبحانه، ويتمتعون بما في الجنة، وخدم أهل الجنة هم الملائكة، فهذه دلالة على أنهم أرقى عند الدخول. شرح الطحاوية في العقيدة السلفية(١/ ٣٠٩) صدر الدين علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي ط دار السلام للطباعة والنشر التوزيع والترجمة (عن مطبوعة المكتب الإسلامي) ط أولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

وقوله﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ..**﴾(١) فإن الأزواج أسبق بالزمان؛ لأن البنات أفضل منهن لكونهن بضعة منه ﷺ، وقوله﴿**..رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ..**﴾(٢)

واعلم أنه ينضم إليه مع ذلك التشريف كقوله﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ..**﴾(٣)، وقوله ﴿**..وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى..**﴾(٤)، ﴿**صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى**﴾(٥).

وأما قوله ﴿**أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى.وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى** ﴾(٦) فإنما قدم ذكر موسى لوجهين:

أحدهما:أنه في سياق الاحتجاج عليهم بالترك وكانت صحف موسى منتشرة أكثر انتشارا من صحف إبراهيم.(٧)

(١) سورة الأحزاب من الآية (٥٩).

(٢) سورة الفرقان من الآية (٧٤) قدم الأزواج باعتبار سبق الزمان.

(٣) سورة آل عمران من الآية (٣٣) قال الألوسي: وبدأ بآدم عليه الصلاة والسلام لأنه أول النوع، وثنى بنوح عليه الصلاة والسلام لأنه آدم الأصغر والأب الثاني وليس أحد على وجه البسيطة إلا من نسله لقوله سبحانه﴿**وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ**﴾[الصافات(٧٧)] ، وذكر آل إبراهيم لترغيب المعترفين باصطفائهم في الإيمان بنبوة واسطة قلادتهم واستمالتهم نحو الاعتراف باصطفائه بواسطة كونه من زمرتهم، وذكر آل عمران مع اندراجهم في الآل الأول لإظهار مزيد الاعتناء بأمر عيسى عليه الصلاة والسلام، لكمال رسوخ الاختلاف في شأنه، وهذا هو الداعي إلى إضافة الآل في الأخيرين دون الأولين. روح المعاني(٣/ ١٣١)

(٤) سورة الأحزاب من الآية (٧).

(٥) سورة الأعلى الآية (١٩).

(٦) سورة النجم الآيتان(٣٦، ٣٧).

(٧) قال البيضاوي: وتقديم موسى عليه الصلاة والسلام لأن صحفه وهي التوراة كانت أشهر =

وثانيهما: مراعاة رءوس الآي.

وقد ينضم إليه التحقير كما في قوله﴿**غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّين**﴾[(١)] تقدم اليهود لأنهم كانوا أسبق من النصارى، ولأنهم كانوا أقرب إلى المؤمنين بالمجاورة.

= وأكبر عندهم. تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي(٣/ ٣٤٢) ط دار الرشيد ط أولى١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

وقال الطاهر ابن عاشور: وعندي أن تأخير ذكر صحف إبراهيم ليقع ما بعدها هنا جامعاً لما احتوت عليه صحف إبراهيم، فتكون صحف إبراهيم هي الكلمات التي ابتلَى الله بها إبراهيم المذكورةُ في قوله في سورة البقرة﴿ **وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ..**﴾ [(١٢٤)] أي: بلغهن إلى قومه ومن آمن به، ويكون قوله هنا﴿ **الَّذِي وَفَّى** ﴾ في معنى قوله﴿ **فَأَتَمَّهُنَّ**﴾ في سورة البقرة. التحرير والتنوير(٢٧/ ١٣٠).

(١) سورة الفاتحة من الآية (٧) فكان تقديم " المغضوب عليهم" على " الضالين" لكونهم أسبق منهم في الوجود، مع الدلالة على تحقيرهم لعدم إيمانهم مع مجاورتهم المؤمنين في إقامتهم بالمدينة، فكان أولى بهم أن يؤمنوا بالنبي ﷺ لمعايشتهم له وإقامتهم معه ورؤيتهم لحسن معاملته لهم وغيرهم ، فالغرض الأول في التقديم سبق الوجود وانضم إليه التحقير.

وقد ذكر العلامة الألوسي أوجها لتقديم " المغضوب عليهم" على " الضالين" فقال: وإنما قدم سبحانه المغضوب عليهم على الضالين مع أن الضلال في بادىء النظر سبب للغضب إذ يقال: ضل فغضب عليه لتقدم زمان المغضوب عليهم وهم(اليهود) على زمان الضالين وهم(النصارى)، أو لأن الإنعام يقابل بالانتقام ولا يقابل بالضلال، فبينهما تقابل معنوي بناءً على أن الأول إيصال الخير إلى المنعم عليه، والثاني إيصال الشر إلى المغضوب عليه، أو لأن اليهود أشد في الكفر والعناد وأعظم في الخبث والفساد، وأشد عداوة للذين آمنوا، ولذا ضربت عليهم الذلة والمسكنة، والنصارى دون ذلك وأقرب للإسلام منهم، ولذا وصفوا بالضلال لأن الضال قد يهتدي ، ومما يدل على أن اليهود أسوأ حالاً من النصارى أنهم كفروا بنبيين محمدﷺ وعيسى عليه السلام والنصارى كفروا بنبي واحد وهو نبينا ﷺ ، وفضائحهم وفظائعهم أكثر مما عند النصارى. روح المعاني بتصرف.(١/ ٩٦)

وقد لا يلحظ هذا كقوله تعالى﴿**وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِم**﴾(١)، وقوله﴿**وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى. وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى**﴾(٢)

ومن التقديم بالإيجاد تقديم السِنة على النوم في قوله﴿..**لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ**..﴾(٣)؛ لأن العادة في البشر أن تأخذ العبد السِنة قبل النوم فجاءت العبارة على حسب هذه العادة ذكره السهيلي، وذكر معه وجها آخر وهو أنها وردت في معرض التمدح والثناء، وافتقاد السِنة أبلغ في التنزيه فبدئ بالأفضل لأنه إذا استحالت عليه السِنة فأحرى أن يستحيل عليه النوم.(٤)

---

(١) سورة العنكبوت من الآية (٣٨).

(٢) سورة النجم الآيتان (٥٠، ٥١).

(٣) سورة البقرة من الآية (٢٥٥).

(٤) لم أقف عليه عند السهيلي في نتائج الفكر.

قال العلامة أبو السعود: السِنةُ ما يتقدم النومَ من الفتور قال عديُّ بنُ الرقاعِ العاملي :

وَسْنانُ أقصده النعاسُ فرنَّقت ... في عينه سِنةٌ وليس بنائمِ

والنومُ حالةٌ تعرِضُ للحيوان من استرخاء أعصابِ الدماغِ من رُطوبات الأبخرة المتصاعدة بحيث تقِف المشاعرُ الظاهرةُ عن الإحساس رأساً ، والمرادُ بيان انتفاءِ اعتراءِ شيءٍ منهما له سبحانه لعدم كونهما من شأنه تعالى، لا لأنهما قاصران بالنسبة إلى القوة الإلهية فإنه بمعزل من مقامِ التنزيهِ، فلا سبيلَ إلى حمل النظم الكريمِ على طريقة المبالغةِ والترقي بناءً على أن القادرَ على دفع السِنة قد لا يقدرُ على دفع النوم القويِّ كما في قولك: فلانٌ يقِظٌ لا تغلِبُه سِنةٌ ولا نوم، وإنما تأخيرُ النوم للمحافظة على ترتيب الوجودِ الخارجي، وتوسيطُ كلمةِ (لا) للتنصيص على شمول النفي لكلٍ منهما.إرشاد العقل السليم(١/ ٤٣٣، ٤٣٤).

واعتبره الدكتور محمد سيد طنطاوي في تفسيره أنه على طريق المبالغة فقال: وتقديم السِنة على النوم يفيد المبالغة من حيث إن نفي السِنة يدل على نفي النوم بالأولى، فنفيه ثانياً صريحاً يفيد المبالغة؛ لأن عطف الخاص على العام يفيد المبالغة، ولأن عطف الخاص على العام يفيد =

- ومنه تقديم الظلمة على النور في قوله تعالى﴿**وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّور**﴾(1) فإن الظلمات سابقة على النور في الإحساس، وكذلك الظلمة المعنوية سابقة على النور المعنوي، قال تعالى﴿**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ**﴾(2) فانتفاء العلم ظلمة، وهو متقدم بالزمان على نور الإدراكات.

- ومنه تقديم الليل على النهار﴿**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ..**﴾(3)، ﴿**سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ**﴾(4)، ﴿ **بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَار**﴾(5)، ﴿**حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُون**﴾(6)، ولذلك اختارت العرب التأريخ بالليالي دون

= التوكيد أي: لا تأخذه سِنة فضلا عن أن يأخذه نوم .التفسير الوسيط(١/ ٥٨٤) ط نهضة مصر ط أولى ١٩٩٧م.

(١) سورة الأنعام من الآية (١) بهذا قال الطاهر ابن عاشور أن الظلمة سابقة على النور سواء أريد بها الظلمة والنور الحقيقيان، أو أريد بها الكفر والإيمان. وقد ورد حديث يفيد تقديم الظلمة على النور في الوجود عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ عن النبي ﷺ قال " إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة فألقى عليهم نورا من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل "
[أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب السنة باب: **ذِكْرِ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ : "إِنَّ اللَّهَ خلق خلقه في ظلمة" ح ٢٤١** . السنة لابن أبي عاصم (١/ ١٠٧) نشر: المكتب الإسلامي ط أولى١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م. كما استدلوا على أن الأصل الظلمة بقوله تعالى﴿ **وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ**﴾ [يس(٣٧)]

(٢) سورة النحل من الآية (٧٨).

(٣) سورة الإسراء من الآية (١٢).

(٤) سورة سبأ من الآية (١٨).

(٥) سورة سبأ من الآية (٣٣).

(٦) سورة الروم من الآية(١٧).

الأيام؛ وإن كانت الليالي مؤنثة والأيام مذكرة، وقاعدتهم تغليب المذكر إلا في التأريخ.

فإن قلت: فما تصنع بقوله تعالى﴿**لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ..**﴾(١)؟ قلت:استشكل الشيخ أبو محمد بن عبد السلام في قواعده بالإجماع(٢) على سبق الليلة على اليوم، وأجاب: بأن المعنى تدرك القمر في سلطانه وهو الليل، أي لا تجيء الشمس في أثناء الليل فقوله بعده ﴿**وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾(٣)أي لا يأتي في بعض سلطان الشمس وهو النهار، وبين الجملتين مقابلة.(٤)

---

(١) سورة يس من الآية (٤٠).

(٢) القواعد الكبرى في فروع الشافعية للشيخ عز الدين ابن عبد السلام سلطان العلماء ذكره صاحب كشف الظنون وقال: ليس لأحد مثله، وكثير منه مأخوذ من شعب الإيمان للحليمي، وله القواعد الصغرى . كشف الظنون لحاجي خليفة.(٢/ ١٣٥٩) نشر مكتبة المثنى ١٩٤١م.

(٣) سورة يس من الآية (٤٠).

(٤) بهذا التفسير قال بعض المفسرين منهم الزمخشري، والألوسي، قال العلامة الألوسي: لا يتسهل للشمس ولا يتسخر﴿ **أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ**﴾ أي في سلطانه بأن تجتمع معه في الوقت الذي حدّه الله تعالى له وجعله مظهراً لسلطانه، فإنه عز وجل جعل لتدبير هذا العالم بمقتضى الحكمة لكل من النيرين الشمس والقمر حداً محدوداً ووقتاً معيناً يظهر فيه سلطانه، فلا يدخل أحدهما في سلطان الآخر، بل يتعاقبان إلى أن يأتي أمر الله عز وجل، وهذه الجملة لنفى أن تدرك الشمس القمر فيما جعل له وقوله تعالى﴿ **وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ**﴾ لنفى أن يدرك القمر الشمس فيما جعل لها، أي ولا آية الليل سابقة آية النهار وظاهر سلطانها في وقت ظهور سلطانها وإلى هذا المعنى يشير كلام قتادة ، والضحاك، وعكرمة، وأبي صالح . روح المعاني(٢٣/ ٢٠) وبهذا زال الإشكال.

فإن قيل: قوله تعالى﴿**يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْل**﴾[١] مشكل على هذا؛ لأن الإيلاج إدخال الشيء فيه، وهذا البحث ينافيه ؟

قلت: المشهور في معنى الآية: أن الله يزيد في زمن الشتاء مقدارا من النهار، ومن النهار في الصيف مقدارا من الليل، وتقدير الكلام: يولج بعض مقدار الليل في النهار وبعض مقدار النهار في الليل، وعلى غير المشهور: يجعل الليل في المكان الذي كان فيه النهار، ويجعل النهار في المكان الذي كان فيه الليل، والتقدير: يولج الليل في مكان النهار، ويولج النهار في مكان الليل.[٢]

- ومنه تقديم المكان على الزمان في قوله ﴿**خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّور**﴾[٣]أي الليل والنهار[٤]، وقوله﴿**وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ.وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾[٥]، ومنه قوله تعالى﴿**رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ**﴾[٦] مشارق الأرض ومغاربها، ولذلك لما استغنى عن أحدهما ذكر المشرق، فقد فقال ﴿**وَرَبُّ الْمَشَارِقِ. إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ**

(١) سورة الحج من الآية (٦١).

(٢) بهذا التفسير قال كثير من المفسرين منهم البيضاوي، وأبو السعود، والألوسي، وغيرهم.

(٣) سورة الأنعام من الآية (١).

(٤) وقد سبق بيانه أن الظلمات تحمل على الظلمة الحقيقية والنور على الحقيقي.

(٥) سورة الأنبياء الآيتان (٣٢، ٣٣) فقدم السماء لأنها مكان، على الليل والنهار لأنهما زمان.

(٦) سورة الرحمن الآية (١٧).

الدُّنْيَا..﴾[١]

- ومنه[٢] قوله تعالى ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ**﴾[٣]، وقوله﴿**وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا**﴾[٤]، ﴿**وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ**﴾[٥].

فإن قيل: فما وجه تقدم الحياة في قوله ﴿**قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ..**﴾[٦]، وقوله﴿**وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[٧]؟

قلنا: إن كان الخطاب لآدم وحواء فلأن حياتهما في الدنيا سبقت الموت، وإن كان للخلق فالخطاب لمن هو حيٌّ يعقبه الموت فجاء التقديم بالترتيب، وكذا الآية بعده[٨].

فإن قيل: فما وجه تقديم الموت على الحياة في الحكاية عن منكر

---

(١) سورة الصافات من الآيتين (٥، ٦). ذكر العلامة الألوسي أن الاستغناء عن ذكر المغارب لاستلزام ذكر المشارق لها، فكأنه قال: ورب المغارب فما له مطلع له مغرب، كما أن الشروق أدل على القدرة وأبلغ في النعمة.روح المعاني(٢٣/ ٦٧)

(٢) يعني من التقديم بالإيجاد تقديم الموت على الحياة .

(٣) سورة الملك من الآية (٢).

(٤) سورة النجم الآية (٤٤)

(٥) سورة البقرة من الآية (٢٧).

(٦) سورة الأعراف من الآية (٢٥).

(٧) سورة الأنعام من الآية (١٦٢).

(٨) أي يخاطب الله آدم وحواء وهو أقل الجمع، أو الخطاب لهما ولذريتهما، وعلى هذا القول تقديم الحياة على الموت واضح؛ لأنهما أحياء فناسب تقديم الحياة ، ويؤيد هذا القول السياق الذي وردت فيه الآية، أو يكون الخطاب لبني آدم لمن كان حيا منهم ولا شك في تقديم الحياة على الموت على هذا.

البعث﴿**إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا..**﴾(١)؟ قلت: لأجل مناسبة رءوس الآي(٢).

فإن قلت: فما وجه تقدم التوفي على الرفع في قوله ﴿**إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ..**﴾(٣) مع أن الرفع سابق .

قيل فيه جوابان:

أحدهما: المراد بالتوفي النوم كقوله تعالى ﴿**يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ**﴾(٤)

---

(١) سورة المؤمنون من الآية (٣٧).

(٢) تلحظ أن تقديم لفظ (نحيا) على لفظ (نموت) لا يؤثر على رعاية الفاصلة لأنها ليست رأس الآية، وقد ذكر العلامة الألوسي أوجها أخري غير القول بمراعاة رؤوس الآي فقال: وقوله تعالى﴿ **نَمُوتُ وَنَحْيَا..**﴾ جملة مفسرة لما ادعوه من أن الحياة هي الحياة الدنيا وأرادوا بذلك يموت بعضنا ويولد بعض وهكذا، وليس المراد بالحياة حياة أخرى بعد الموت؛ إذ لا تصلح الجملة حينئذٍ للتفسير ولا يذم قائلها وناقضت قولهم ﴿**وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ**﴾،وقيل: أرادوا بالموت العدم السابق على الوجود، أو أرادوا بالحياة بقاء أولادهم فإن بقاء الأولاد في حكم حياة الآباء ولا يخفى بعده، ومثله على ما قيل ـ وأنا لا أراه كذلك ــ: أن القوم كانوا قائلين بالتناسخ فحياتهم بتعلق النفس التي فارقت أبدانهم بأبدان أخر عنصرية تنقلت في الأطوار حتى استعدت لأن تتعلق بها تلك النفس المفارقة، فزيد مثلاً إذا مات تتعلق نفسه ببدن آخر قد استعد في الرحم للتعلق ثم يولد، فإذا مات أيضـًا تتعلق نفسه ببدن آخر كذلك، وهكذا إلى ما لا يتناهى، وهذا مذهب لبعض التناسخية وهم مليّون ونحليون، ويمكن أن يقال: إن هذا على حد قوله تعالى لعيسى ﴿ **إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ**﴾ [آل عمران(٥٥)] على قول، فإن العطف فيه بالواو وهي لا تقتضي الترتيب، فيجوز أن تكون الحياة التي عنوها الحياة التي قبل الموت، ويحتمل أنهم قالوا نحيا ونموت إلا أنه لما حكى عنهم قيل﴿ **نَمُوتُ وَنَحْيَا**﴾ ليكون أوفق بقوله تعالى﴿**إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا**﴾ . روح المعاني(١٨/ ٣٢، ٣٣).

(٣) سورة آل عمران من الآية (٥٥)

(٤) سورة الأنعام من الآية (٦٠)

وثانيهما: أن التاء في متوفيك زائدة أي: موفيك عملك.(١)

(١) ذكر الإمام الألوسي الأقوال في بيان معنى الآية فقال رحمه الله:
﴿**إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ** ..﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال: هذا من المقدم والمؤخر أي: رافعك إليّ ومتوفيك، وهذا أحد تأويلات اقتضاها مخالفة ظاهر الآية للمشهور المصرح به في الآية الأخرى، وفي قوله ﷺ :" إن عيسى لم يمت وإنه راجع إليكم قبل يوم القيامة " [أخرجه ابن أبي حاتم في تفسير قوله تعالى﴿ **وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ**﴾ [النساء ١٥٧] عن الحسن.تفسير ابن أبي حاتم ٤/ ١١١٠) مكتبة نزار مصطفى الباز_ المملكة العربية السعودية ط ثالثة – ١٤١٩ هـ .]

وثانيها: أن المراد إني مستوفي أجلك ومميتك حتف أنفك لا أسلط عليك من يقتلك، فالكلام كناية عن عصمته من الأعداء وما هم بصدده من الفتك به عليه السلام، لأنه يلزم من استيفاء الله تعالى أجله وموته حتف أنفه ذلك.

وثالثها: أن المراد قابضك ومستوفي شخصك من الأرض، من توفى المال بمعنى: استوفاه وقبضه.

ورابعها: أن المراد بالوفاة هنا النوم لأنهما أخوان ويطلق كل منهما على الآخر، وقد روي عن الربيع أن الله تعالى رفع عيسى عليه السلام إلى السماء وهو نائم رفقاً به، وحكي هذا القول والذي قبله أيضاً عن الحسن.

وخامسها: أن المراد أجعلك كالمتوفى لأنه بالرفع يشبهه.

وسادسها: أن المراد آخذك وافياً بروحك وبدنك فيكون﴿**وَرَافِعُكَ إِلَيَّ**﴾ كالمفسر لما قبله.

وسابعها: أن المراد بالوفاة موت القوى الشهوانية العائقة عن إيصاله بالملكوت.

وثامنها: أن المراد مستقبل عملك ، ولا يخلو أكثر هذه الأوجه عن بعد لا سيما الأخير.

وقيل: الآية محمولة على ظاهرها ، فقد أخرج ابن جرير عن وهب أنه قال: توفى الله تعالى عيسى ابن مريم ثلاث ساعات من النهار حتى رفعه إليه[تفسير ابن جرير ٥/ ٤٥٠] ، والصحيح كما قاله القرطبي: أن الله تعالى رفعه من غير وفاة ولا نوم وهو اختيار الطبري والرواية الصحيحة عن ابن عباس، وحكاية أن الله تعالى توفاه سبع ساعات ذكر ابن إسحق أنها من زعم النصارى. ولهم في هذا المقام كلام تقشعر منه الجلود ، ويزعمون أنه في الإنجيل وحاشا الله ما هو إلا افتراء وبهتان عظيم .روح المعاني(٣/ ٢٨٥، ٢٨٦).

- ومنها سبق إنزال كقوله ﴿**وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ.مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ**﴾[١]، وقوله﴿**الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ**﴾[٢].

وأما قوله﴿**وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ..**﴾[٣] فإنما قدم القرآن منبها له على فضيلة المنزل إليهم.

ومنها: سبق وجوب كقوله تعالى﴿**ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا**﴾[٤]، وقوله ﴿**تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا**﴾[٥]

فإن قيل: فقد قال﴿**وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾[٦]

قيل: يحتمل أنه كان في شريعتهم السجود قبل الركوع، ويحتمل أن يراد

---

(١) سورة آل عمرن من الآية (٣، ٤). كما تقدم ذكر نزول القرآن على التوراة والإنجيل مع تأخر نزوله عليهما، وهذا من قبيل الاهتمام به ، ثم كرر الحديث عن نزول القرآن مرة أخرى للتنصيص على النزول الجملي للتعبير بلفظ(أنزل)، ولإفادة التسمية له بالفرقان.

(٢) سورة الأعراف من الآية (١٥٧)

(٣) سورة آل عمران من الآية (١٩٩) قال العلامة الألوسي: وتأخير إيمانهم بذلك عن إيمانهم بالقرآن في الذكر مع أن الأمر بالعكس في الوجود لما أن القرآن عيار ومهيمن عليهما، فإن إيمانهم بذلك إنما يعتبر بتبعية إيمانهم بالقرآن؛ إذ لا عبرة بما في الكتابين من الأحكام المنسوخة وما لم ينسخ، إنما يعتبر من حيث ثبوته بالقرآن ولتعلق ما بعد بذلك، وقيل: قدم الإيمان بما أنزل على المؤمنين تعجيلاً لإدخال المسرة عليهم، والمراد من الإيمان بالثاني الإيمان به من غير تحريف ولا كتم كما هو شأن المحرفين والكاتمين واتباع كل من العامة.روح المعاني(٤/ ١٧٤)

(٤) سورة الحج من الآية (٧٧)

(٥) سورة الفتح من الآية (٢٩)

(٦) سورة آل عمران من الآية (٤٣)

بالركوع ركوع الركعة الثانية، وقيل: المراد بـ(اركعي): اشكري، وقيل أراد بـ(اسجدي):صلي وحدك، وب(اركعي): صلي في جماعة، ولذلك قال مع الراكعين(١).

(١) ذكر بعض المفسرين وجوها لتقديم السجود على الركوع في هذه الآية فقال أبو السعود: وتقديمُ السجود على الركوع إما لكون الترتيب في شريعتهم كذلك، وإما لكون السجودِ أفضلَ أركانِ الصلاة وأقصى مراتبِ الخضوع، ولا يقتضي ذلك كونَ الترتيب الخارجيّ كذلك بل اللائقُ به الترقي من الأدنى إلى الأعلى، وإما لِيَقْترن اركعي بالراكعين للإشعار بأن من لا ركوعَ في صلاتهم ليسوا مصلّين، وأما ما قيل من أن الَواوَ لا توجب الترتيبَ فغايتُه التصحيحُ لا الترجيح ، وتجريدُ الأمر بالرُكنين الأخيرين عما قُيِّد به الأولُ لما أن المراد تقييدُ الأمر بالصلاة بذلك وقد فعل حيث قيد به الركن الأول منها. إرشاد العقل السليم(٢/ ٥٧).
وذكر العلامة الألوسي حكمة ذلك فقال: ولعل تقديم السجود على الركوع لأنه كذلك في صلاتهم، وقيل: لأنه أفضل أركان الصلاة وأقصى مراتب الخضوع ، وفي الخبر" أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد " [أخرجه مسلم في صحيحه ك: الصلاة ، باب: ما يقال في الركوع والسجود ح ١١١١، (صحيح مسلم ٢/ ٤٩)] ،أو للتنبيه على أن الواو لا توجب الترتيب، أو ليقترن(**وَارْكَعِي**) بالراكعين للإيذان بأنّ مَن ليس في صلاتهم ركوع ليسوا مصلين، وكل من هذه الأوجه لا يخلو عن دغدغة:
أما أولاً: فلأنه إنما يتم على القول بأن القيام ليس أفضل من السجود كما نقل عن الإمام الشافعي.
وأما الثاني: فلأن خطاب القرآن مع من يعلم لغة العرب لا مع من يتعلم منه اللغة.
وأما الثالث: فلأن تماميته تتوقف على بيان وجه أنه لم يعبر بالساجدين تنبيهاً على أن من لا سجدة في صلاته ليس من المصلين؟ وكان وجه ذلك ما يستفاد من كلام الزمخشري حيث قال:ويحتمل أن يكون في زمانها من كان يقوم ويسجد في صلاته ولا يركع ، وفيه من يركع فأمرت بأن تركع مع الراكعين ولا تكون مع من لا يركع ، فالنكتة في التعبير ما جعلت نكتة في ذكر﴿ **وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾، واعترضه أيضاً بعضهم بأنه إذا قدم الركوع ، وقيل:(واركعي مع الراكعين واسجدي) يحصل ذلك المقصود ، ولا مدخل للتقديم والتأخير في إفادة ذلك، وقيل: المراد بالسجود وحده الصلاة كما في قوله تعالى﴿**وَأَدْبَارَ السُّجُودِ**﴾[سورة =

ومنها: سبق تنزيه كقوله تعالى ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ﴾[1] فبدأ بالرسول قبل المؤمنين، ثم قال كلٌّ آمن بالله وملائكته، فبدأ بالإيمان بالله لأنه قد يحصل بدليل العقل، والعقل سابق في الوجود على الشرع، ثم قال(وملائكته) مراعاة لإيمان الرسول فإنه يتعلق بالملك الذي هو جبريل أولا، ثم بالكتاب الذي نزل به جبريل، ثم بمعرفة نفسه أنه رسول وإنما عرف نبوة نفسه بعد معرفته بجبريل عليه السلام وإيمانه، فترتب الذكر المنزل عليه بحسب ذلك فظهرت الحكمة والإعجاز، فقال: كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله؛ لأن الملك هو النازل بالكتاب، وإن كان الكتاب أقدم من الملك، ولكن رؤية النبي ﷺ للملك كانت قبل سماعه الكتاب، وأما إيماننا نحن بالعقل آمنا بالله أي: بوجوده، ولكن الرسولﷺ عرفنا اسمه وجوب النظر المؤدي إلى معرفته فآمنا بالرسول، ثم بالكتاب المنزل عليه، وبالملك النازل به فلو ترتب اللفظ على حسب إيماننا لبدأ بالرسول قبل الكتاب، ولكن إنما ترتب على حسب إيمان الرسولﷺ الذي هو إمام المؤمنين، ذكره السهيلي في أماليه[2].

وقال غيره: في هذا الترتيب سر لطيف، وذلك لأن النور والكمال

= ق الآية (٤٠)]، والتعبير عن الصلاة بذلك من التعبير بالجزء عن الكل، ويراد بالركوع الخشوع والتواضع وكأن أمرها بذلك حفظًا لها من الوقوع في مهاوي التكبر والاستعلاء بما لها من علو الدرجة، والاحتمال الأول هو الظاهر. روح المعاني(٣/ ١٥٧).

(١) سورة البقرة من الآية (٢٨٥).

(٢) لم أقف عليه في أمالي السهيلي .

والرحمة والخير كله مضاف إلى الله تعالى، والوسائط في ذلك الملائكة، والمقابل لتلك الرحمة هم الأنبياء والرسل، فلا بد أولا من أصل، وثانيا من وسائط، وثالثا من حصول تلك الرحمة، ورابعا من وصولها إلى المقابل لها، والأصل المقتضى للخيرات والرحمة هو الله، ومن أعظم رحمة رحم بها عباده إنزال كتبه إليهم، والموصل لها هم الملائكة، والمقابل لها المنزلة عليهم هم الأنبياء، فجاء الترتيب على ذلك بحسب الوقائع.

الثاني: بالذات

كقوله تعالى﴿**مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ**﴾[١]، ونحوه﴿**مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ..**﴾[٢]، وقوله﴿**سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ**﴾[٣]، وكذلك جميع الأعداد كل مرتبة هي متقدمة على ما فوقها بالذات، وأما قوله تعالى﴿**إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ..**﴾[٤] فوجه تقديم المثنى أن المعنى حثهم على القيام بالنصيحة لله وترك الهوى مجتمعين متساويين، أو منفردين متفكرين، ولا شك أن الأهم حالة الاجتماع فبدأ بها.[٥]

---

(١) سورة النساء من الآية (٢).

(٢) سورة المجادلة من الآية (٧).

(٣) سورة الكهف من الآية (٢٣).

(٤) سورة سبأ من الآية (٤٦).

(٥) قال أبو حيان في البحر: قدم(**مثنى**) لأن طلب الحقائق من متعاضدين في النظر أجدى من فكرة واحدة، فإذا انقدح الحق بين الاثنين فكر كل واحد منهما بعد ذلك فيزيد بصيرة، وشاع الفتح بين الاثنين. البحر المحيط(٧/ ٢٧٧). =

الثالث: بالعلة والسببية:

كتقديم العزيز على الحكيم لأنه عز فحكم(١)، وتقديم العليم على الحكيم لأن الإتقان ناشئ عن العلم(٢)، وكذا أكثر ما في القرآن من تقديم وصف العلم على الحكمة ﴿**قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾(٣)، ويجوز أن يكون قدم وصف العلم هنا ليتصل بما يناسبه وهو ﴿**لَا عِلْمَ لَنَا**﴾ وفي غيره من نظائره لأنه صفات ذات فيكون من القسم قبله.

= وقال العلامة الألوسي: وفي تقديم مثنى إيذان بأنه أوثق وأقرب إلى الاطمئنان. روح المعاني (٢٢/ ١٥٤).

(١) هذا هو الغالب في النص القرآني؛ لأن العزة لابد أن تكون منضبطة بالحكمة.

(٢) ليس هذا هو الغالب فقد ورد تقديم الحكيم على العليم معرفا في موضعين في قوله﴿**وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ**﴾ [سورة الزخرف(٨٤)]، وقوله﴿ **قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ** ﴾ [سورة الذاريات(٣٠)]، كما ورد تقديمه منكرا في خمسة مواضع في قوله تعالى﴿ **وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ**﴾ [سورة الأنعام(٨٣)]، وقوله تعالى ﴿ **وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ**﴾[الأنعام(١٢٨)]، وقوله﴿ **وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ** ﴾[الأنعام(١٣٩)] ، وقوله﴿ **وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ**﴾[الحجر(٢٥)]، وقوله﴿**وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ**﴾ [النمل(٦)]، وتقديم الحكيم على العليم في هذه المواضع لأنه المناسب للمقام والسياق.

(٣) سورة البقرة الآية (٣٢).

ومنه قوله﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾[1] قدمت العبادة لأنها سبب حصول الإعانة، وقوله﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾[2] فإن التوبة سبب الطهارة، وكذا ﴿**وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ**﴾[3]؛لأن الإفك سبب الإثم، وكذا ﴿**وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ**﴾[4]، وقوله﴿**وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا. لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا**﴾[5] قدم إحياء الأرض لأنه سبب إحياء الأنعام والأناسي، وقدم إحياء الأنعام لأنه مما يحيا به الناس بأكل لحومها وشرب ألبانها.

وكذا كل علة مع معلولها كقوله﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ..**﴾[6] قيل قدم الأموال من باب تقديم السبب، فإنه إنما شرع النكاح عند قدرته على مؤونته فهو سبب والتزويج سبب للتناسل، ولأن المال سبب

---

(١) سورة الفاتحة الآية (٥) والأسباب مقدمة على تحصيل المطالب، فقدمت العبادة على الاستعانة لأنها وسيلة لها، وكذلك ما ذكره من آيات أخرى بعده ، وذلك لأن الثاني متسبب عن الأول.

(٢) سورة البقرة من الآية (١٢٢).

(٣) سورة الجاثية الآية (٧).

(٤) سورة المطففين الآية (١٢).

(٥) سورة الفرقان من الآيتين (٤٨، ٤٩). ذكر الألوسي وجها آخر للتقديم غير تقديم الأسباب على المسببات فقال: وجوز أن يكون تقديم ما ذكر على سقي الأناسي لأنهم إذا ظفروا بما يكون سقي أرضهم ومواشيهم لم يعدموا سقياهم، وحاصله أنه من باب تقديم ما هو الأهم والأصل في باب الامتنان. روح المعاني(١٠/ ٣١).

(٦) سورة الأنفال من الآية (٢٨)